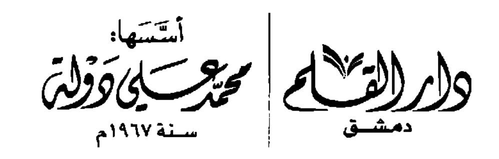
من كنوز القرآن

في ظلال الإيمان

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق


في ظلال الإيمان



الطبعة الرابعة
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

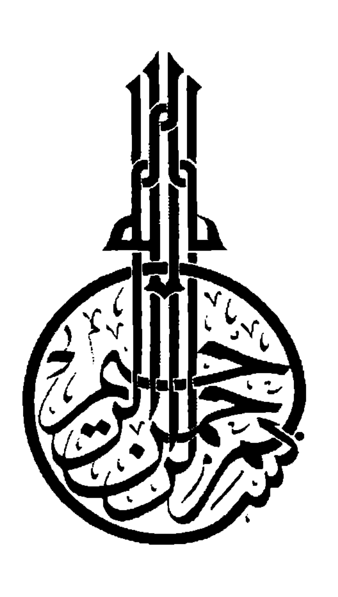
من كنوز القرآن

٢

في ظلال الإيمان

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي




بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمَةُ الطّبعَةِ الثَالِثَة

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٤٠٧هـ، وفق ١٩٨٦م.
وصدرت طبعته الثانية عام ١٤١١هـ، وفق ١٩٩١م.

وهو الحلقة الثانية من سلسلة «من كنوز القرآن» التي منَّ الله عليَّ بإتمامها وإصدارها، والتي وجدت قبولاً طيباً عند القراء والباحثين ودعاة الإسلام ومتذوقي القرآن، ولله الحمد والشكر.

وها أنذا أعهد بالطبعة الثالثة من هذا الكتاب، إلى ناشر كتبي، الأستاذ الفاضل محمد علي دولة، ليصدر عن دار القلم العامرة.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

الاثنين في: ١٦ شعبان ١٤١٣هـ
٨ شباط ١٩٩٣م

صويلح: ص.ب: ٦٦٩

في ظلال الإيمان

الإيمان حقيقة ثابتة، وقيمة عظمى، ونعمة غامرة، ونور وهدى وحياة.. الإيمان من أعظم حقائق هذا الوجود، ومن أجلّ نعم هذه الحياة.. الإيمان هو الوجود وهو الحياة.. إن هذا الوجود لا حقيقة له بدون إيمان، وهذه الحياة لا طعم لها بدون إيمان.. إن الإيمان هو الذي يجعل للوجود معنى، وللإنسان وظيفة، وللحياة طعماً..

إن الإنسان بالإيمان يجد نفسه ويعرف سرَّ وجوده، ووظيفة القوى في هذا الوجود. إن الإنسان لا يحقق إنسانيته إلاَّ بالإيمان.. وإنه لا يساوي شيئاً بدون إيمان.. إنه يعطل حواسه ومداركه، ويفقد سكينته وطمأنينته، ويخرب نفسه وكيانه، ويفسد حياته وحياة من معه ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥]، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

الإنسان بالإيمان كل شيء، وبدون الإيمان ليس بشيء.. إذا وَجَد الإيمان وَجَد كل شيء، وإذا فَقَد الإيمان فَقَد كل شيء، ولا ينفعه في هذه الدنيا أي شيء.

ماذا يفقد من وجد الإيمان واطمأن به وعاش في ظلاله؟ ماذا يفقد من رضي به وذاق حلاوته وتبوأه وأحبه؟.. وماذا يجد من فقد هذه النعم الإيمانية؟ ماذا تنفعه الدنيا بمتاعها وقواها وشهواتها؟ ما هو طعم هذه الأشياء ونفعها بدون إيمان ويقين ورضى واطمئنان.. ولقد صدق أحد المؤمنين الصالحين في قوله: «نحن المؤمنون نعيش في نعمة الإيمان، وهي نعمة عظمى، لو عرفها الملوك لحاربونا عليها بالسيوف!!».

صدق هذا المؤمن في كلامه فإن الإيمان أعظم نعمة في هذا الوجود والحياة، ولا تقاربها نعمة حتى لو كانت نعمة الوجود والحياة..

لهذا يمتنُّ الله علينا أن هدانا لهذا الإيمان وأنعم علينا به ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

هذا وقد أساء بعضهم استعمال هذه الكلمة الحبيبة المباركة «الإيمان» ومسخوها وحرفوها، وفرغوها من معناها الإيماني الطيب إلى معان أخرى لا تليق بها، وأطلقوا الإيمان على أمور تافهة أو باطلة.. وإننا ندعو إلى أن نحسن استعمال هذا المصطلح المبارك، ولا نطلقه إلاَّ على ما يليق به من المعاني والحقائق والمقررات والتصورات..

ونحن المسلمون عندما نريد أن نفهم الإيمان، وأن نؤمن حق الإيمان فإننا سنلجأ إلى كتاب الله الكريم ليحدثنا عنه، وإلى رسول الله ﷺ ليدلنا عليه..

إن الإيمان الإسلامي القرآني لا يؤخذ إلاَّ من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، وفهم علماء الإسلام المأخوذ من هذين المصدرين، والمتفِق مع مقرراتهما، ولا يجوز أن نأخذ قولاً أو رأياً يخالف هذه

المقررات مهما كان قائله.. لأننا ملزمون ألاَّ نخالف الكتاب والسنّة، ولا نقول بغير ما قالا به، وأقوالنا وآراؤنا محكومة بالكتاب والسنّة وليس العكس.. ولهذا نرفض كلام بعض الفرق الإسلامية حول الإيمان الذي خالفوا فيه الكتاب والسنّة.. ولقد حصل تشويش وخلط واضطراب عند بعضهم في بعض القضايا المتعلقة بالإيمان مثل: الإيمان والإسلام، وحقيقة الإيمان، والصلة بين العمل وبين الإيمان، وزيادة الإيمان ونقصانه، وأركان الإيمان ونواقضه وغير ذلك.

وكما أن الإيمان نعمة فإن الحياة في ظلال الإيمان نعمة، نعمة لا يعرفها إلاَّ من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.. والسعيد هو الذي يعيش في ظلال الإيمان، ويحيا بالإيمان، ويتحرك من خلال الإيمان.. السعيد هو الذي يتبوّأ الإيمان ويتزين بزينة الإيمان، ويستجيب لنداء الإيمان، ويسابق الآخرين ويسبقهم في عالم الإيمان.. السعيد هو الذي يغرس في قلبه شجرة الإيمان، ويذوق في حياته حلاوة الإيمان، ويجد فيها طعم الحياة والإيمان..

ولقد تحدث القرآن عن الإيمان حديثاً لطيفاً محبباً، وعرضه عرضاً مصوراً جذاباً، وقرره تقريراً صادقاً قاطعاً بيناً.. وحديث القرآن عن الإيمان هو الحق والصواب لأنه كلام الله.. ومن أصدق من الله قيلا؟ ومن أصدق من الله حديثاً؟

وقد أحببنا أن نعيش لحظات سعيدة في فترات متباعدة مع القرآن، وأن نسعد بحديثه عن الإيمان، وعرضه للإيمان.. فوجدنا عند القرآن كلاماً شافياً، وتقريراً صادقاً، ووصفاً بليغاً، وتصويراً حياً.. فتعرفْنا على الإيمان، وعشنا في ظلال الإيمان، وسعدنا بالحياة مع الإيمان، واتضحت لنا معالم الإيمان ــ ولله الحمد والمنة والفضل والشكر ــ .

ورغبةً منا في التحدث بنعمة الله، وتقديم ما نطلع عليه من الخير والنفع ـ أو ما نظنه كذلك ـ للمسلمين، أحببنا أن نقدم لهم هذه الرسالة، التي سجلنا فيها أبرز ما وقفنا عليه من عرض القرآن للإيمان، وأهم ما وجدناه من الحياة في ظلال الإيمان.. إن هذه الرسالة تحوي خلاصة موجزة لحياتنا في ظلال الإيمان، ولتعاملنا مع القرآن في حديثه عن الإيمان.. وقد حاولنا أن نقدم الإيمان للمسلمين من خلال عرض القرآن، ليبدو ما فيه من جمال وحق وخير ونور.. كما حاولنا أن نركز على القضايا الحياتية الواقعية للإيمان.. وأن نلمس آثاره العملية وأبعاده الواقعية، ومهمته الحيوية.. حاولنا أن يكون لكلامنا عن الإيمان بعد واقعي عملي، وأن نشير إلى أمور وقضايا حية يجدها الناس في حياتهم ويعيشونها.. كما حاولنا أن نناقش أفكاراً باطلة وأن نفند أقوالاً خاطئة حول الإيمان..

لم نرد أن يكون كلامنا عن الإيمان كلاماً نظرياً ثقافياً، ولا عرْضُنا له عرضاً نظرياً ثقافياً، وإنما أردنا أن نستفيد نحن والقراء الكرام فائدة عملية، ونجني ثمرة تربوية، وأن نجد آثار هذا على واقعنا وحياتنا وسلوكنا وأخلاقنا وتصرفاتنا وممارساتنا.

تحدثنا في هذه الرسالة عن المباحث والموضوعات التالية:

معنى الإيمان. الأمن والإيمان. حقيقة الإيمان. القرآن والإيمان. الإسلام والإيمان. العقيدة والإيمان. إيمان وإيمان. أركان الإيمان. من صفات أهل الإيمان. زيادة الإيمان. نقصان الإيمان. كتابة الإيمان. نعمة الإيمان. تبوؤ الإيمان. شجرة الإيمان. ثمرة الإيمان. حلاوة الإيمان. طعم الإيمان. محبة الإيمان. نداء الإيمان. مجالس الإيمان. موكب

الإيمان. التسابق في الإيمان. نور الإيمان. نفع الإيمان. استعلاء الإيمان. تجارة الإيمان.. ورابطة الإيمان..

وبعد فهذه هي الرسالة الثانية من هذه السلسلة التي نويت ـ بإذن الله ـ إصدارها حول كنوز القرآن. أقدمها لجنود الإيمان وأهله وأحبابه.. راجياً أن يروق لهم هذا الكلام عن الإيمان، وأن يجدوا فيه بعض النفع والخير والعلم..

وإنني أرجو أحبابي في الإيمان الذين سعدت بالسير معهم في طريق الإيمان، أن يمنُّوا عليَّ بما يجدونه على هذه الرسالة من استدراك أو تعقيب أو توجيه لأن الدين النصيحة، والمؤمن مرآة أخيه..

كما أرجو من إخواني المؤمنين أن يكرموني بدعوة صالحة بظهر الغيب، وأن يتضرعوا إلى الله لي ولهم أن يثبتنا على الإيمان في هذا العصر الذي كثر فيه لصوص الإيمان، وأن يكرمنا بالحياة في ظلال الإيمان وتذوق طعم الإيمان.. وأن يُحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا وأن يكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ويجعلنا من الراشدين.. أرجو من إخواني وأحبابي أن يطلبوا من الله لي ولهم أن يحيينا بالإيمان، وأن يميتنا على الإيمان، ويختم لنا بخاتمة الإيمان..

ونسأل الله أن يجعلنا جميعاً من أحبابه السعداء يوم القيامة، وأن يجعلنا في الجنة إخواناً على سرر متقابلين:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ .

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي

صويلح، في: ١٨/ ٣ /١٤٠٦هـ

١ /١٢/ ١٩٨٥م

معنـى الإيمـان

قال ابن منظور في لسان العرب «الإيمان مصدر آمن يؤمن إيماناً، فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق» (لسان العرب: ١٣/ ٢٣).

والجذر الثلاثي للإيمان هو «أَمِنْ» وهو يعني الأمن ضد الخوف. يقول أبو البقاء الكَفَوِي في كتابه القيم «الكليات»: «الإيمان: الثقة، وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة، إفْعال من الأمن ضد الخوف.. يتعدى إلى مفعول واحد نحو أَمَّنْتُه: أي كنتُ أميناً. وإذا عُدي بالهمزة يعدى إلى مفعولين. تقول: «آمَنْتُ زيداً عمراً: بمعنى جعلتُه آمناً منه. ثم استعمل في التصديق، إما مجازاً لغوياً لاستلزامه ما هو معناه، فإنك إذا صدَّقتَ أحداً آمَنْتَه من التكذيب في ذلك التصديق، وإما حقيقة لغوية فيه..» [الكليات: ١/ ٣٦١].

من الكلام السابق تظهر لنا الصلة بين هذه الكلمة الحبيبة «الإيمان» وبين المصدر «الأَمنْ» وتلحظ هذه الصلة الوثيقة بينهما في صياغة الكلمتين «الأمن والإيمان» وفي معانيهما اللغوية والعرفية والشرعية، وفي الظلال اللطيفة الوريفة الأليفة التي تُلْقيانها وتوحيان بها..

فالأمن ضد الخوف، وهو طمأنينة النفس وزوال الخوف [المفردات: ٢٥. وانظر لسان العرب: ١٣/ ٢١. والكليات: ١/ ٣١١]، والإيمان هو التصديق المؤدي إلى الطمأنينة. وهذا يعني أن الأمن لن يحصل ولن يتحقق

إلاَّ بوجود الإيمان وتَحَقُّقه، وأن الخوف لن يزول إلاَّ بحياة الإيمان وفاعليته، وأن الطمأنينة لن تَحُل إلاَّ بالإيمان الواثق البصير، وأن الثقة لن توجد إلاَّ بوجود الإيمان. .

نخرج مما سبق بأن الإيمان هو: الثقة، والخضوع، والتصديق، والطمأنينة، والأمن، وبما أن هذه المعاني الخمسة يشملها الإيمان ويوحي بها، ويجمعها بتناسق وتناسب، فإننا نرى الصلة والارتباط بين هذه المعاني فيما بينها، ونرى أهمية تحققها ووجودها في كيان المسلم وشعوره، وتحققها ووجودها بين المسلمين في ارتباطاتهم وصِلاتهم. .

وإننا ندعو المسلم إلى أن يلحظ وجود هذه المعاني عنده، فهو مؤمن، وهذا يعني أنه يعيش حياة هانئة مباركة في ظلال هذه المعاني، يتقلب في أفيائها وبركاتها ويتعامل مع معانيها وإيحاءاتها. . فإذا وجد هذا في حياته فهو قد عرف الإيمان وعاشه وتعامل مع معانيه، وإن لم يجد هذا في حياته فإنه لم يعرف الإيمان ولا معانيه، ولذلك لا بد أن يعيد نظرته إليه، وأن يُحسن صلته به. . لأن معايشة هذه المصطلحات والحياة بها وفي ظلالها هي الغاية والهدف والثمرة من معرفتها، وإذا لم تُحَقق الغاية فكأن المعرفة لم توجد.

بعدما عرفنا المعاني التي تشتمل عليها كلمة الإيمان والتي توحي بها نتحدث عن تعريف الإيمان بمعناه العرفي والاصطلاحي.

نقل ابن منظور في اللسان تعريف الزَّجاج للإيمان فقال: «الإيمان: إظهار الخضوع والقبول للشريعة، ولِما أتى به النبي ﷺ، واعتقادُه وتصديقُه بالقلب. فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاك، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه، ولا يدخله في ذلك ريب» [لسان العرب: ١٣/ ٣٣].

وقال ابن منظور أيضاً: «والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤد للأمانة وهو منافق [اللسان: ١٣/ ٢٣].

وقد سئل الخليل بن أحمد: ما الإيمان؟ قال: هو الطمأنينة [اللسان: ١٣/ ٢٤].

وقال أبو البقاء في تعريف الإيمان: «هو عرفا: الاعتقاد الزائد على العلم» ويقول: «الإيمان الشرعي هو أن يعتقد الحق. أي يجزم به ويذعن بقلبه وهذا هو المسمى التصديق» [الكليات: ١/ ٣٦١].

وعن تعريف الإيمان شرعاً يقول أبو البقاء: «والإيمان شرعاً: هو إما فعل القلب فقط، أو اللسان فقط، أو فعلهما جميعاً، أو هما مع سائر الجوارح» [الكليات: ١/ ٣٦٢].

ننتقل بعد هذا إلى كتاب «التعريفات» للإمام السيد علي الجرجاني، حيث يقول: الإيمان في اللغة: التصديق بالقلب. وفي الشرع: هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان، قيل: من شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق، ومن شهد ولم يعمل فهو فاسق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر.

والإيمان على خمسة أوجه: إيمان مطبوع، وإيمان مقبول، وإيمان معصوم، وإيمان موقوف، وإيمان مردود.. فالإيمان المطبوع هو إيمان الملائكة، والإيمان المعصوم إيمان الأنبياء. والإيمان المقبول إيمان المؤمنين. والإيمان الموقوف إيمان المبتدعين، والإيمان المردود هو إيمان المنافقين» [التعريف للجرجاني: ١٨].

• • •

الأمـن والإيمـان

«الأمن هو طمأنينة النفس وزوال الخوف» [المفردات: ٢٥]، ويكون الأمن «في مقابلة خوف العدو بخصوصه» [الكليات: ١/ ٣١١]، ويتعلق الأمن في المستقبل ولذلك قال فيه الإمام الجرجاني: «هو عدم توقع مكروه في الزمان الآتي» [التعريفات: ١٦].

وقد استعمل القرآن الكريم كلمتين هما «الأمن»، و «الأَمَنة»، وقال بعضهم هما بمعنى واحد، وهذا القول غير دقيق، لأن مصطلحات القرآن ليست مترادفة، فقد تكون متقاربة في معانيها تقارباً يخفى على بعض الناظرين، فيظنها مترادفة. ولكن المتأمل البصير والناظر الحاذق يقف على فروق بينها، وقد تكون فروقاً دقيقة جداً، المهم هو ملاحظتها والقول بها.

فما هو الفرق بين الأمن والأَمَنة؟. . ورد في كتاب الكليات هذا الفرق: «الأمن يكون مع زوال سبب الخوف. . والأمنة مع بقاء سبب الخوف» [الكليات: ١/ ٣١١].

وعند النظر في آيات القرآن تظهر صحة وصوابية هذا الفرق فكلمة «أَمَنة» لم ترد في القرآن إلاَّ مرتين، وفي سياق الحرب بين المسلمين والكفار.

الأولى: في غزوة بدر عندما أنزل الله النعاس على الصحابة. قال

تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، وهذا النعاس الأمنة لم يُلْغِ سبب الخوف، وهو وجود الكفار المحاربين ونشوب الحرب واحتدام القتال، ولكن الصحابة عاشوا وهم يحاربون وسط الخوف في أمنة من الله سبحانه.

الثانية: في غزوة أحد. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وما قلناه في الأمنة الأولى يقال هنا.

ويحضرني في هذا المقام قول الشاعر المبدع المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني وتصوير شجاعته وإقدامه في مقاتلة عدوه:

وقفْتَ وما في الموت شكٌّ لواقف   كأنك في جَفْنِ الرَّدى وهو نائمُ
تمر بكَ الأبطالُ كَلْمى هزيمةً   ووجهُك وضاحٌ وثغرُكَ باسمُ

والأمن نعمة عظيمة من نعم الله يمتنُّ بها الله على عباده، وهذه النعمة ضرورية للحياة تكاد تساوي نعمة الطعام والشراب والوجود ـ إنْ لم تزد عليها ـ والحياة بدون أمن وأمان غليظة جافة قاسية مجدبة لا يمكن أن تُعاش أو تُطاق..

امتنَّ الله على قريش بأن هيأ لهم الأمن، فعاشوا في ظلال حرم الله الآمِن، عاشوا آمنين في واحة الأمن والأمان عند الكعبة، والناس حولهم يَتَعذبون ويُتَخَطفون في صحراء الحرب والنهب والخوف والقلق.. قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا؟﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧].

قريش تعيش آمنة في ظلال بيت الله الآمن، ومع ذلك لم تشكر الله

على هذه النعمة الوافرة، بل استخدمتها في الكفر والشرك بالله.. ولما دعاها رسول الله ﷺ إلى الإيمان بالله وحده، رفضت هذه الدعوة بحجة أنها إن فعلت ذلك ــ تحاربها القبائل الأخرى وتُفْقِدُها هذا الأمن والأمان.. فالشرك والكفر عند قريش هو الذي يحقق الأمن والأمان.. أما الإسلام والهدى والإيمان فإنه نقيض هذا الأمان وضده فلا يمكن أن يتحقق من خلاله «وقالوا: إنْ نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا». إنَّ قريشاً هنا تغالط وتخادع، وتحرف الكلم عن معانيه وحقائقه ومواضعه، وتفصل بين الهدى والطمأنينة والأمن والإيمان، مع أنها متلازمة لا فصل بينها..

هذا القول القرشي الباطل، كم نجد من يردده في هذه الأيام ممن يزعمون أنهم مسلمون، من الحكام والمحكومين.. إذا دُعوا إلى الإيمان والإسلام والالتزام بهما في عالم الواقع، وَجَعْلهما منهاج الحياة وأساس التشريع، وإخضاع كل جوانب حياة الأمة صغيرها وكبيرها لهما.. إذا دُعوا إلى هذا قالوا ــ بلسان الحال أو المقال ــ «إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا» إنَّ تطبيقنا للإسلام سيفقدنا الأمن والأمان، ويثير علينا الحروب والاضطرابات في الداخل والخارج، وتهاجمنا الدول الكافرة جميعها، ونخسر صداقتها ومساعدتها وودها ودعمها.. إن الإسلام يجر علينا كل هذه المشكلات.. وهم في هذا الكلام كاذبون مخادعون.. كما أنهم محرفون مغالطون.. وهم في نهاية الأمر ــ إن اعتقدوا ذلك ــ كافرون!!

كذلك امتن الله على قريش بنعمة الأمن وربطها بالإطعام والرفاه الاقتصادي ــ بعدما ربطها فيما سبق بالموقع الجغرافي والوجود المكاني ــ فقال في سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

ونلحظ الدقة القرآنية العجيبة في الربط بين النعمتين الضروريتين للإنسان،

نعمة الشبع ونعمة الأمن. أي التقدم الاقتصادي والازدهار التجاري والرفاه الاجتماعي والأمن السياسي والطمأنينة الحضارية.. وارتباط هذا كله بعبادة الله وحده، والإخلاص والدينونة له والخضوع لأمره والتزام وتنفيذ شرعه، وبدون هذا لا أمن و لا طمأنينة ولا أمان!! وإننا نتساءل في هذا القرن العشرين عن الأمن والأمان في عالمنا الذي يزعم أنه إسلامي، ونبحث عن هذا الأمن والأمان فلا نكاد نجدهما عند الأفراد ولا عند المجتمعات.. لقد تحكم «الملأ» الكبراء الظالمون في الشعوب المسلمة وأخضعوها لهم من دون الله، وحرموها لذة الأمن وطعم الأمان وحلاوة الطمأنينة، وجرعوها كؤوس الذل والكبت والإرهاب والقهر في كل لحظة، وصارت هذه الشعوب المسحوقة تقتات هذا وتجده في الطعام والشراب والهواء والأنفاس والليل والنهار.. ألا فلْيَع هؤلاء المسلمون هذه الحقيقة: إنه لا أمْن ولا أمان إلاَّ بالخضوع لله وحده، ولا حرية ولا عزة إلاَّ بعبادته وحده. فليزيحوا عن رقابهم نير العبودية لغير الله، ولْيَدْعوا باستمرار إلى هذه الحقيقة، ولْيحققوها في عالم الواقع.

الأمن والأمان نعمة للمسلم فقط، لا يجوز للكافر أن يشعر بها ولا أن يعيشها ويتذوقها، فكيف يأمن وقد حارب الله؟ كيف يأمن وقد كفر بالله؟ كيف يأمن وقد استحق غضب الله؟ كيف يأمن وقد استجلب عذاب الله؟ لا يدري متى يأتيه، فليبق باستمرار خائفاً قلقاً، مضطرباً متمزقاً، متلفتاً مترقباً، متوقعاً هذا العذاب!! كيف يأمن مَنْ كان هذا وضعه؟ وهذه حياته؟ إن الله ينكر على الكافرين أمنهم وأمانهم وهم كفار. قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧ ــ ٩٩].

وقال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٨].

وقد قرر هذه الحقيقة بوضوح وحزم بالغين أبو الأنبياء إبراهيم الخليل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في معرض دعوته قومه إلى الله، إذ هدده قومه غضب آلهتهم عليه وبطشهم به إن استمر على دعوته.. كما توعدوه بالإيذاء والاضطهاد.. وحاولوا أن يقذفوا في قلبه الرعب والقلق والاضطراب، وأن يُفْقدوه لذة الأمن ونعمة الأمان.. ولكن إبراهيم عليه السَّلام استعلى عليهم بإيمانه، وعاش معهم في ظلال الأمن والأمان. وواجههم بالحقيقة جاهرة محددة.. قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٣].

إن إبراهيم عليه السَّلام يعيد ترتيب المسألة، ويضعها في وضعها الصحيح في ميزان الله، ويلفت أنظار الناس إليها، ويلقن المؤمنين الدعاة حتى قيام الساعة هذه الحجة ليجهروا بها أمام أعدائهم بعدما تستوعبها عقولهم، ويعيشونها في واقعهم وحياتهم، إنه يُؤَصِّل لنا قضية «الخوف والأمن» وهي أهم وأخطر قضية في حياة البشرية. مَنْ هو الجدير بالخوف والفزع؟ لا يمكن أن يكون المؤمن الذي آمن بالله فآمَنَهُ الله، فعاش آمِناً مطمئناً ولو حاربه كل الناس! إنه الكافر الظالم، لأنه لم يحصل على أمان من الله، ولن ينفعه أمان البشر وأمنهم لأنهم عاجزون عن منحه له.. من هو

الجدير بالأمن والأمان والسكينة والاطمئنان؟ إنه ليس الكافر الذي غضب الله عليه وتوعده العذاب وهو ينتظر وقوعه به في أية لحظة، ومشاعره وأحاسيسه ونفسه متوجسة متوفزة قلقة مضطربة.. إن المؤمن هو الجدير بالأمن الحقيق به لأنه آمنه الله سبحانه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

هل يعي الدعاة هذه الحقيقة حول «الخوف والأمن»؟ وهل يعيشونها في حياتهم؟ وهل يستغْلون بها على تهديد أعدائهم؟ ويرُدون بها على تحريفاتهم؟ وينطلقون بها في دعوتهم؟ لنرفعْها شعاراً عملياً واقعياً لا نغفل عنه لحظة: المؤمن هو الحقيق بالأمن، والكافر هو المحروم منه الجدير بالخوف والقلق والاضطراب.

بهذا يتبين لنا الارتباط الوثيق بين المصطلحين «الأمن والإيمان» وتبدو لنا الصلة قوية متينة بينهما. سواء من حيث الصياغة اللفظية، أو من حيث الدلالة المعنوية، أو من حيث الظلال والإيحاءات والإشارات.

الأمن ضد الخوف ونقيضه، وهو طمأنينة النفس وثباتها وسكينتها. والإيمان هو الأمن والأمان والطمأنينة والسكينة، والثقة والتصديق..

إن الأمن والإيمان مرتبطان متلازمان، بل إنني ألحظ الصلة بينهما صلة الفرع بالأصل، والنتيجة بالمقدمة والثمرة بالشجرة. إنني أرى أن الإيمان هو الأصل والمقدمة والشجرة، والأمن هو الفرع والنتيجة والثمرة. إن إبراهيم الخليل عليه الصَّلاة والسَّلام يريد أن يقول لنا إنه لا أمن إلاَّ بالإيمان، فإذا فُقِد الإيمان تبدد الأمن وتلاشى..

ندعو المسلمين في أيامنا، الذين لم يتذوقوا نعمة الأمن، ولم

يعيشوها، إلى تدبر هذا وفهمه وحسن تعليله وتفسيره وتوجيهه. إنهم لم يحققوا الإيمان في نفوسهم وقلوبهم، ولم يوجدوا ثماره وآثاره في حياتهم وواقعهم ـ والأمن إحدى هذه الثمار ـ فعليهم أن يتوجهوا إلى الإيمان ويحققوه ويوجدوه ويعيشوا به كما فعل الصحابة الكرام عليهم الرحمة والرضوان.. وعندها سيتذوقون الأمن وسيشعرون بالأمان.. هذا في حياتهم الدنيا وهو مكسب عظيم، وخير جزيل جميل.

أما موقفهم يوم القيامة، يوم الفزع الأكبر، والخوف والهلع والاضطراب والقلق، فيبينه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت: ٤٠].

• • •

حقيقـة الإيمـان

ما هي حقيقة الإيمان؟ وما هو مضمونه؟ هل الإيمان هو التصديق فقط أم هو التصديق والنطق بالشهادتين؟ أم هو هذين الأمرين يضاف إليهما العمل بما صدق به؟

اختلف المسلمون في هذه المسألة إلى عدة أقوال: وقد أجمل أبو البقاء الكَفَوي هذه الأقوال في «الكليات» فقال: «والإيمان شرعاً: هو إما فعل القلب فقط، أو اللسان فقط، أو فعلهما معاً، أو هما مع سائر الجوارح..

فعلى الأول: هو إما التصديق فقط، والإقرار ليس ركناً، بل شرط لإجراء الأحكام الدنيوية، وهو مختار الماتريدي.

أو التصديق بشرط الإقرار وهو مذهب الأشعري وأتباعه..

والرابع: مذهب المحدثين، وبعض السلف، والمعتزلة، والخوارج..» [١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣] وبعد أن أورد هذه الأقوال ذكر الراجح عنده فقال: «والمذهب عندنا أن الإيمان فعل عبد بهداية الرب وتوفيقه.. وهو الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، والتصديق بالقلب هو الركن الأعظم، والإقرار كالدليل عليه» [١/ ٣٦٣].

ويقول: «وليس الإيمان هو الإقرار باللسان فقط كما زعمت الكرَّامية،

ولا إظهار العبادات والشكر بالطاعات كما زعمت الخوارج، فإنا نعلم من حال الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام عند إظهار الدعوة أنه لم يكتف من الناس بمجرد الإقرار باللسان ولا العمل بالأركان مع تكذيب الجَنان، بل كان يسمي من كانت حاله كذلك كاذباً ومنافقاً. .» [١/ ٣٦٤].

والقول الراجح في بيان حقيقة الإيمان هو قول معظم أهل السُّنَّة من أهل السلف والمحدثين وغيرهم بأن الإيمان هو التصديق بالقلب والنطق باللسان والعمل بالجوارح والأركان. أي هو: اعتقاد وقول وعمل. فهذه الثلاثة كلها مندرجة فيه وتمثل أجزاء من حقيقته. . وقد توافرت أقوال علماء السلف ومَنْ بعدَهم على هذه الحقيقة.

قال شارح العقيدة الطحاوية «ذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين: إلى أنه تصديق بالجَنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان» [شرح العقيدة الطحاوية: ٣٧٣].

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين مِنْ بعدهم، ومن أدركناهم، يقولون: «إن الإيمان قول وعمل ونية لا تجزىء واحدة من الثلاثة إلاَّ بالأخرى».

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: «ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السُّنَّة من شعائر السُّنَّة».

وقال الإمام إسحاق بن راهويه: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا شك في ذلك. وقال الإمام ابن عبد البر: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل. ولا عمل إلاَّ بنية» [الإيمان لمحمد نعيم: ١٤٦].

وقال الإمام سهل بن عبد الله التستري «الإيمان: قول وعمل ونية وسنّة.. لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر. وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق. وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنّة فهو بدعة» [الإيمان لابن تيمية: ١٦٣].

وقد أورد الإمام النووي في شرحه على صحيح الإمام مسلم أقوال جماعة من أهل السنّة والسلف في حقيقة الإيمان: «قال الإمام أبو الحسن علي بن خلف بن بطال المالكي في شرح صحيح البخاري: مذهب جماعة أهل السنّة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص» [شرح مسلم: ١/ ١٤٦].

وقال الإمام عبد الرزاق: سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا: سفيان الثوري ومالك بن أنس وعبد الله بن عمر والأوزاعي ومعمر بن راشد وابن جريج وسفيان بن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.. وهذا قول ابن مسعود وحذيفة والنخعي والحسن البصري وعطاء وطاووس ومجاهد وعبد الله بن المبارك.. فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح» [١/ ١٤٦ ــ ١٤٧].

ويعلق الإمام النووي على هذه الأقوال في بيان حقيقة الإيمان قائلاً: «هذا مذهب جماعة أهل السنّة. إن الإيمان قول وعمل. قال أبو عبيد: وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومَنْ بعدهم، من أرباب العلم والسنّة، الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم» [١/ ١٤٧].

وقال الإمام البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه «هو قول وفعل

يزيد وينقص والحب في الله والبغض في الله من الإيمان.. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعشْ فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص» [فتح الباري بشرح البخاري: ١/ ٤٣ ـ ٤٥ هامش].

وقال الإمام ابن حجر في الفتح: «وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخر الاعتقاد والعبادات.. ومراد مَن أدخل تلك في تعريف الإيمان ومن نفاه إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى.. فالسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان.. وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله.. ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص كما سيأتي.. والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط. والكرَّامية قالوا: هو نطق فقط. والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد..

والفارق بينهم وبين السلف: أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته.. والسلف جعلوها شرطاً في كماله..

وهذا كله ـ كما قلنا ـ بالنظر إلى ما عند الله.. أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر فقد أجريت عليه الأحكام في الدنيا، ولم يحكم عليه بكفر ـ إلاَّ إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم ـ فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق: فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره.. ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله.. ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فعل الكافر ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته..» [فتح الباري: ١/ ٤٤].

والأدلة كثيرة على صحة هذا القول في حقيقة الإيمان. فهناك آيات

وأحاديث صحيحة توحي بأن الأعمال من الإيمان، ويؤخذ منها أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل.. من هذه الأدلة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا..﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، فقد جمعت هذه الآيات ـ وهي تعرض صفات المؤمنين ـ بين عمل القلب وعمل الجوارح، واعتبرت هذا كله إيماناً، وقصرت الإيمان عليه بأداة القصر والحصر «إنما» وعرَّفت المؤمنين بتلك الصفات مجتمعة، عندما ختمتها بعبارة: «أولئك هم المؤمنون حقاً» وأعمال الجوارح في هذه الصفات هي: إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله..

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: ١٥]، فأدخلت الآية الجهاد في سبيل الله ـ وهو عمل الجوارح ـ في مسمى الإيمان، وضمن حقيقة الإيمان.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥﴾ [السجدة: ١٥]، فسجود المؤمنين عندما يُذَكَّرون بآيات الله، ـ عبادة عملية بدنية، وتسبيحهم بحمد ربهم عبادة عملية لسانية، وعدم استكبارهم عبادة عملية سلوكية أخلاقية.. وهذه كلها أعمال مندرجة في حقيقة الإيمان.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٧﴾ [البقرة: ٢٧٧]، فمن حقيقة الإيمان في الآية عمل الصالحات على عمومها،

وخصصت اثنتين منهما بالذكر وهما الصلاة والزكاة، واعتبرت أداءهما عملياً من الإيمان.

وآيات القرآن التي قرنت بين الإيمان وعمل الصالحات واعتبرت الأمرين من حقيقة الإيمان ومن صفات المؤمنين كثيرة، فالآيات التي جمعت بينهما بصيغة المفرد خمس عشرة آية. كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم: ٦٠]، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

والآيات التي جمعت بين الإيمان والعمل في صيغة الجمع ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اثنتان وخمسون آية.. منها هذه الآيات..

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ [المائدة: ٩٣]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة: ١٨ ـ ١٩].

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

ومن الآيات التي عرضت صفات المؤمنين، وجعلت من بينها صفاتٍ عملية وأعمالاً بدنية، قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١٠].

هـذا وقـد أطلـق القـرآن الكـريـم لفـظ «الإيمـان» علـى العمـل فـي بعـض الآيات.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

والإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى هذا، بـل إن الصحـابـة فهمـوا هـذا، وتضـافـرت الـروايـات عنهـم فـي سبـب نـزول الآية..

روى إمام المفسرين ابن جرير الطبري بسنده عن قتادة قال: «كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص. صلَّت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبـي الله ﷺ. وصلَّى نبـي الله ﷺ بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقـدس سبعـة عشـر شهـراً.. ثـم وجَّهـه الله بعـد ذلـك إلـى الكعبـة البيـت الحرام.. فقال في ذلك قائلون من الناس: ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ لقد اشتاق الرجل إلى مولده! قال الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]، فقال أناس ــ لما صُرفت القبلة نحو البيت الحرام ــ كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ﴾ [جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري: ٣/ ١٥٧].

ثم أورد الإمام الطبري إحدى عشرة رواية عن الصحابة والتابعين في أن المراد بالإيمان في الآية الصلاة، وأنها نزلت جواباً على تساؤل لبعض الصحابة عن مصير الصلاة التي صلوها إلى بيت المقدس، وتساؤل آخرين منهم عن مصير صلاة إخوانهم إلى بيت المقدس الذين ماتوا قبل تحويل اقبلة إلى الكعبة. [انظر تفسير الطبري: ٣/ ١٦٧ ــ ١٦٩].

وعقب الطبري عليها بقوله: «قال أبو جعفر: قد دلَّلْنا فيما مضى على أن الإيمان التصديق، وأن التصديق قد يكون بالقول وحده، وبالفعل وحده، وبهما معاً.

فمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ ـ على ما تظاهرت به الرواية من أنه الصلاة ـ وما كان الله ليضيع تصديق رسول الله ﷺ، بصلاتكم التي صليتموها نحو بيت المقدس عن أمره، لأن ذلك كان منكم تصديقاً لرسولي، واتباعاً لأمري، وطاعة منكم لي» [تفسير الطبري: ٣/١٦٩].

وقد التفت الإمام الطبري إلى الربط بين الإيمان والصلاة، ولاحظ وجود التصديق في ممارسة الصلاة والتوجه فيها إلى بيت المقدس ثم إلى الكعبة المشرفة. وهذه اللفتة من الطبري لطيفة، وهذا الربط منه رائع، يشير إلى موهبته الفذة في التفسير واللغة وغيرهما..

بقي أن نحاول بيان الحكمة في العدول عن التعبير بالصلاة إلى التعبير بالإيمان هنا:

إن الإيمان هو التصديق والثقة والطمأنينة والأمن ـ كما مر معنا فيما سبق ـ وإن هذه المعاني ملحوظة في أداء الصلاة، ولذلك اعتبرت الصلاة إيماناً، والصحابة كانوا يعيشون هذه المعاني عملياً وهم يؤدون الصلاة متوجهين إلى بيت المقدس، كانوا يتذوقون الأمن والطمأنينة والثقة والتصديق.. ثم لما حولت القبلة إلى الكعبة خافوا على صلاتهم السابقة، فكأن الطمأنينة والأمن زعزعت بهذا التحويل في نفوسهم، فأراد الله أن تبقى قوية ثابتة راسخة.. فطمأنهم على صلاتهم وقبولها فأطلق عليها كلمة الإيمان ـ والله أعلم ـ.

ومن الآيات التي أطلقت كلمة الإيمان على الأعمال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩].

ذهبت طائفة من المفسرين إلى أن المراد بالإيمان هنا الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا.. وقد أورد الإمام الطبري أقوال مجموعة من التابعين في هذا المعنى، منها قول ابن جريج: «وقال ابن جريج: يهديهم ربهم بإيمانهم قال: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك! فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلازم صاحبه ويُلازُّه حتى يقذفه في النار» [تفسير الطبري: ١٥/٢٨].

وهناك آيات أخرى أطلقت على الإيمان عبارات أخرى تشير إلى العمل وتتضمنه، أورد الإمام البخاري في صحيحه بعضها:

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، قال البخاري: «دعاؤكم إيمانكم.. ومعنى الدعاء في اللغة: الإيمان» وجعل ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ الدعاء هنا بمعنى الإيمان قال: «لولا دعاؤكم، لولا إيمانكم، [فتح الباري: ١/٤٦]، وأخبر الكفار أنه لا حاجة له بهم» [انظر تفسير الطبري: ١٩/٣٥] وقد نقل الإمام ابن حجر قول ابن عباس بعبارة أوضح وأصرح فقال: «لولا إيمانكم: أخبر الله الكفار أنه لا يعبأ بهم، ولولا إيمان المؤمنين لم يعبأ بهم أيضاً» [فتح الباري: ١/٤٦].

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ

وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالآية اعتبرت هذه الخصال تصديقاً وإيماناً، وجعلت أعمال البر هذه من الإيمان. ووجه الدلالة من الآية ما فسره رسول الله ﷺ. . حيث روى عبد الرزاق وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فتلا عليه هذه الآية: ﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ. . ﴾ إلى آخرها. . والحديث رجاله ثقات» [فتح الباري: ١/ ٤٨].

ومن فقه الإمام البخاري وفطنته ــ وهو البصير في الحديث والتفسير ــ أنه جعل هذه الآية وما فيها من خصال البر من أمور الإيمان وضمن باب أسماه «باب أمور الإيمان» وقرنها مع الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» التي تتحدث عن صفات المؤمنين، ومع الحديث الذي يقرر أن الإيمان بضع وستون شعبة. [انظر هامش فتح الباري: ١/ ٤٨].

ومن هذه الآيات: ثلاث آيات أوردها الإمام البخاري في صحيحه ضمن باب «من قال إن الإيمان هو العمل» وهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٢]، قال ابن حجر في الفتح: «وقد نقل جماعة من المفسرين أن قوله هنا تعملون معناه: تؤمنون» [فتح الباري ١/ ٧٢].

والثانية قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾. قال البخاري: «عن لا إلّه إلاَّ الله»، وقال ابن حجر في الشرح: «يدخل فيها المسلم والكافر. فإن الكافر مخاطب بالتوحيد بلا خلاف، بخلاف باقي الأعمال ففيها الخلاف. . فالسؤال عن التوحيد متفق

عليه فهذا هو دليل التخصيص، وحَمْل الآية عليه أولى، بخلاف الحمل على جميع الأعمال لما فيه من الاختلاف» [فتح الباري: ١/ ٧٣].

والثالثة قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١]، «أي فليؤمن المؤمنون» [انظر فتح الباري: ١/ ٧٣].

من هذه الآيات التي أوردناها يتبين لنا أن الإيمان في القرآن شامل للاعتقاد وللنطق وللعمل، ولا بد من القول بهذا اتباعاً للقرآن الكريم، الذي يجب أن تؤخذ منه الأقوال والآراء، وأن يُعتمد عليه في الاستدلال والاستنباط، وأن يدخله المتأمل والباحث بدون مقررات مسبقة. . فما قرره القرآن قُبِل، وما عرضه أُخِذ به، وما قال به لزم المؤمنين القول به. .

ونشير بعد هذا إلى طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ التي اعتبرت الإيمان شاملاً للقول والعمل والاعتقاد:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون شعبة. . والحياء شعبة من الإيمان».

وفي رواية للإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة. أفضلها قول لا إلّه إلاَّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. . والحياء شعبة من الإيمان. .» والشاهد في الحديث ما ذكره رسول الله ﷺ فالشهادة قول وإماطة الأذى عن الطريق عمل، والحياء خلق وسلوك، وجَعْل الثلاثة من الإيمان دليل على حقيقته، ومعظم شعب الإيمان هي أعمال. وقد انطلق من هذا الإمام البيهقي فألف كتابه «شعب الإيمان».

وروى البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وروى البخاري عن أبـي هريرة وأنس رضي الله عنهما أن النبـي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

وروى البخاري عن أبـي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سُئل أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور».

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أمر وفد عبد القيس عندما قدموا عليه بالإيمان بالله وحده. قال: «هل تدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إلّه إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمساً من المغنم».

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

وروى البخاري عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وروى البخاري عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «انتدب الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلاَّ إيمان بـي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة».

وروى البخاري عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «من قام رمضان

إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» وروي عنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». .

هذه الأحاديث العشرة ــ من أحاديث أخرى صحيحة ــ تدل على حقيقة الإيمان وتشير إليها، وتجعلها شاملة للاعتقاد والنطق والعمل. .

(اقرأْ كتاب الإيمان من صحيح البخاري وشرحه في فتح الباري، وقِفْ بخاصة أمام هذه الأبواب: باب أمور الإيمان. باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. باب حلاوة الإيمان. باب علامة الإيمان حب الأنصار. باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال. باب الحياء من الإيمان. باب من قال إن الإيمان هو العمل. باب قيام ليلة القدر من الإيمان. باب الجهاد من الإيمان. باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان. باب الصلاة من الإيمان. . وغير ذلك).

نخلص من هذا المبحث في بيان حقيقة الإيمان إلى أنه ليس مجرد التصديق والاعتقاد، ولكنه شامل للاعتقاد والنطق والعمل. أو هو ــ بعبارة شارح العقيدة الطحاوية ــ «تصديق بالجَنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان». . وأن هذا هو قول جمهور العلماء من أهل السلف والمفسرين والمحدثين، وأنهم أخذوا هذا القول من آيات القرآن الكريم الصريحة، والأحاديث الصحيحة لرسول الله ﷺ. . وبهذا يظهر خطأ قول أبي البقاء الكفوي في «الكليات» تعليقاً على هذا القول «وبهذا تبين قبح قول الحشوية أن الإيمان هو التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان» [الكليات: ١/ ٣٦٤].

• • •

القـرآن والإيمان

أكثر القرآن من استعمال «الإيمان» وذلك لما للإيمان من أهمية خاصة في الدين الإسلامي. باعتباره أساس القبول عند الله، وباعتباره حياة مباركة عاشها كل المؤمنين السابقين منذ آدم عليه السَّلام. . وسيبقى حياة مباركة يعيشها المؤمنون الملتزمون بدين الله حتى تقوم الساعة.

استعمل القرآن كلمة «الإيمان» في السور المكية والسور المدنية على السواء، استعملها وهو يتحدث عن الأنبياء وأتباعهم، كما استعملها وهو يطالب الكفار بالإيمان، وهو يطالب المؤمنين بتحديد الإيمان، وهو يعرض مواصفات المؤمنين وصفاتهم النابعة من الإيمان، وهو يكلفهم بتكاليف الإيمان، وهو يقرر ثمرات الإيمان. .

وقـد بلغـت المـرات التـي استعملـت فيهـا كلمـة الإيمـان وصيغهـا واشتقاقاتها ثمانمائة واثنتي عشرة مرة (٨١٢). . وكانت الحالات المستعملة فيها خمساً وثلاثين حالة:

١ ــ الفعل الماضي المجرد (آمَنَ): ثلاثاً وثلاثين مرة (٣٣)

٢ ــ الفعل الماضي المسند إلى تاء التأنيث (آمَنَتْ): خمس مرات (٥)

٣ ــ الفعل الماضي المسند للمتكلم (آمنتُ): ثلاث مرات (٣)

٤ ــ الفعل الماضي المسند للمتكلمين (آمنا): ثلاثاً وثلاثين مرة (٣٣)

٥ ــ الفعل الماضي المسند للمخاطبين (آمنتم): عشر مرات (١٠)

٦ ـ الفعل الماضي المسند للغائبين (آمنوا): مائتين وثمان وخمسين مــرة (٢٥٨)

٧ ـ المضارع المفرد المجرد (تؤمِن): ثلاث مرات (٣)

٨ ـ المضارع مع نون التوكيد (لتؤمِنَنَّ): مرة واحدة (١)

٩ ـ المضارع مع المخاطبين (لتؤمنوا): اثنتي عشرة مرة (١٢)

١٠ ـ المضارع مرفوع من الأفعال الخمسة (تؤمنون): ثماني مرات (٨)

١١ ـ المضارع مع المتكلمين (نؤمن): ثلاث عشرة مرة (١٣)

١٢ ـ المضارع مع المتكلمين مؤكد بالنون (لنؤمِنَنَّ): مرة واحدة (١)

١٣ ـ المضارع للغائب (يؤمن): ثمانية وعشرين مرة (٢٨)

١٤ ـ المضارع مع نون النسوة (يؤمِنَّ): مرتين (٢)

١٥ ـ المضارع للغائب مؤكد بالنون (ليؤمننَّ): مرة واحدة (١)

١٦ ـ المضارع للغائبين مؤكد بالنون (ليؤمنُنَّ): مرة واحدة (١)

١٧ ـ المضارع للغائبين مع حذف النون (يؤمنوا): ثماني عشرة مرة (١٨)

١٨ ـ المضارع للغائبين في حالة الرفع (يؤمنون): سبعاً وثمانين مرة (٨٧)

١٩ ـ فعل أمر للمفرد (آمِنْ): مرة واحدة (١)

٢٠ ـ فعل أمر للجماعة (آمِنوا): ثماني عشرة مرة (١٨)

هـذه حـالات الكلمـة فـي صـورتهـا الفعليـة: فعـل مـاضٍ أو مضـارع أو أمر.

أما حالاتها في صورتها الإسمية: «إيمان» فهي كما يلي:

٢١ ـ اسم معرف بأل التعريف (الإيمان): سبع عشرة مرة (١٧)

٢٢ ـ اسم مجرد من أل مجرور (بإيمان): مرة واحدة (١)

٢٣ ـ اسم مجرد من أل منصوب (إيماناً): سبع مرات (٧)

٢٤ ـ مضاف للمخاطبين (إيمانكم): سبع مرات (٧)

٢٥ ــ مضاف للغائب المفرد (إيمانه): مرتين (٢)

٢٦ ــ مضاف للأنثى الغائبة (إيمانها): ثلاث مرات (٣)

٢٧ ــ مضاف للجمع الغائبين (إيمانهم): سبع مرات (٧)

٢٨ ــ مضاف للجمع المؤنث (إيمانهن): مرة واحدة (١)

٢٩ ــ اسم فاعل مرفوع أو مجرور (مؤمن): خمس عشرة مرة (١٥)

٣٠ ــ اسم فاعل منصوب (مؤمناً): سبع مرات (٧)

٣١ ــ اسم فاعل مثنى (مؤمنَيْنِ): مرة واحدة (١)

٣٢ ــ اسم فاعل جمع مرفوع (مؤمنون): خمساً وثلاثين مرة (٣٥)

٣٣ ــ اسم فاعل جمع منصوب أو مجرور (مؤمنين): مائة وأربعاً وأربعين مرة (١٤٤)

٣٤ ــ اسم فاعل مؤنث (مؤمنة): ست مرات (٦)

٣٥ ــ اسم فاعل لجمع المؤنث (مؤمنات): اثنتين وعشرين مرة (٢٢)

٨١٢

وهناك كثير من اللفتات والإيحاءات واللطائف في استعمال القرآن لكلمة الإيمان وتصريفاتها، وليس المقام مقام وقوف عندها واستخراج لها.. ونرجو أن يتخصص أحد الباحثين فيها وأن يتحف المؤمنين المتذوقين للقرآن بها.. إنه موضوع يصلح أن يكون كتاباً ممتعاً، ودراسة إيمانية قرآنية، تحت عنوان «الإيمان في القرآن».

لكننا نحاول أن نقف وقفتين سريعتين، لنقدم من خلالهما نموذجاً لتدبر القرآن، وتسجيل بعض لطائف ولفتات أسلوبه، واستخراج دلالات نافعة للمؤمنين.

نختار من حالات استعمال «الإيمان» في القرآن في صورتها الفعلية، ورودها فعلاً مضارعاً مؤكداً بنون التوكيد.

كم مرة وردت فعلاً مضارعاً مؤكداً بنون التوكيد؟ لقد وردت أربع مرات. والمرات الأربعة ليست متشابهة، فكل مرة في حالة خاصة.

مرة واحدة أسند الفعل فيها للمتكلمين. وهي قوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤ ــ ١٣٥].

ومرةً واحدة أسند الفعل فيها للمخاطبين: وهي التي تعرض ميثاق الله المأخوذ على الأنبياء ليؤمنوا برسول الله ﷺ إذا أدركتهم بعثته وهم أحياء: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

ومرة واحدة أكد الفعل المسند للغائب المفرد. وهي قوله تعالى في الإخبار عن إيمان كل نصراني بعيسى على أنه عبد الله ورسوله وذلك قبل موت ذلك النصراني وفي حالة لا ينفعه فيها إيمانه.. ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

ومرة واحدة أكد الفعل المسند للغائبين، وهي قوله تعالى في بيان مغالطات المشركين وطلبهم المعجزات الحسية وربطهم إيمانهم بها: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩].

هذه الظاهرة ملفتة للنظر حقاً، نواجهها بسؤال كاشف عن لفتات

التعبير القرآني: لماذا؟ وما هي الحكمة؟ وماذا نأخذ من هذا؟ هذا السؤال لا بد أن نطرحه على كل ظاهرة تعبيرية قرآنية أو صياغة أسلوبية قرآنية، وبه نحاول أن نستخرج بعض كنوز القرآن.. لقد اكتفى السابقون بتسجيل الظواهر في الأسلوب القرآني والإشارة إليها ووضعها أمام القارىء. لكنهم قلما وقفوا أمام هذه الظواهر محللين كاشفين عن بعض ما توحي به وتشير إليه وتلقيه.. إن هذه مهمتنا عندما نتدبر كلام الله.

لماذا ندر استعمال القرآن «الإيمانَ» مؤكَّداً؟ ثم ما هو السياق الذي ورد فيه هذا الإيمان المؤكد؟ ولماذا لم يرد إلاّ في ذلك السياق؟

نقول: إن الإيمان لا يحتاج إلى التوكيد اللفظي باللسان، إن الإيمان هو الطمأنينة والتصديق واليقين. وهذا إذا استقر في القلب انعكس على الجوارح والسلوك والحياة، وألقى ظلالاً واضحة عليها، وترك آثاراً ملموسة فيها، وهذه الظلال والآثار والثمار يلحظها ويدركها كل من ينظر إلى صاحب الإيمان ويتعامل معه عملياً.. وعندما يسعد بصلته به ويسر بتعامله معه، يعلم أن هذه الصفات الإيجابية والآثار المباركة ما هي إلاّ ثمار الإيمان وآثاره.. ولذلك لسان حال هذا المؤمن هو أعظم مترجم عن إيمانه، وسلوكه العملي ترجمة حية لإيمانه ودليل ملموس على حيويته وقوته.. ومن كان كذلك فلا يحتاج أن يعلن للناس بلسانه عن إيمانه، وأن يدَّعي حصوله عليه وتمكنه منه، وأن يؤكد هذا الإيمان بأغلظ الأيْمان.. وإيمان المؤمنين يجب أن يكون من هذا القبيل. ولذلك لا يحتاجون إلى توكيده.

أما إذا رأينا إنساناً يعلن عن إيمانه ويعمل له دعاية إعلامية، ويؤكده بأغلظ الأيْمان وأوكدها، فإننا نشك في صدق هذا في دعايته وأيْمانه، ولا نصدقه في حصوله على الرصيد الكبير من الإيمان، لأنه لو حصل عليه لما

أكده ولأدركناه عملياً. وما دام أكده هذا التأكيد فمعناه أنه مدَّعٍ له ادعاء، يريد أن يدعم ادعاءه بأيْمانه، إنه لا يملك هذا الإيمان، وإنه ناقص في حياته وشخصيته، ولذلك يجعل له هذه الدعاية.. لأن الناقص هو الذي يحتاج للدعاية، أما السوي المتكامل فإنه يقدم نفسه للناس بشخصيته وسلوكه وأعماله، وليس بلسانه وبلاغته وكلامه وأيْمانه..

الإيمان المؤكد في القرآن لم يرد إلاَّ في أربعة مواضع يجمعها أنها لم تتحقق عملياً، ولم توجد في عالم الواقع، وإنما بقيت في دائرة الكلام المؤكد، والعهود الموثوقة، والأيْمان المغلظة..

آية آل عمران تتحدث عن العهد الذي أخذه الله على الأنبياء إن أدركوا محمداً ﷺ آمنوا به ونصروه واتبعوه ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ وأعطوا ربهم هذا العهد والميثاق.. ولكن هل تحقق هذا عملياً في الحياة الدنيا وفي التاريخ الإنساني؟ الجواب بالنفي. لم يتحقق لأنه لم يبق نبي من الأنبياء السابقين حياً يعيش بين الناس عند بعثة محمد ﷺ. صحيح أنه لو بقي أحدهم حياً فإنه سيؤمن بالنبي ﷺ ويتبعه وينصره.. لكن عملياً وواقعياً وتاريخياً لم يحصل هذا ولم يتحقق. إذن الإيمان المؤكد في الآية هو عبارة عن وعد ناجز قاطع أعطاه الأنبياء في الإيمان بنبوة محمد ﷺ، لكنهم لم يتمكنوا من تحقيقه لأنه لم تطل أعمارهم حتى يدركوا بعثته عليه الصَّلاة والسَّلام..

ولا يتعارض هذا مع إيمان الأنبياء بنبوة كل منهم، ولا مع أُخُوتهم ومحبتهم لبعضهم. فهذا حق كما قال الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]، ولا مع قوله ﷺ: «الأنبياء إخوة أبناء عِلَّات»..

إن كلامنا عن عدم تحقق الإيمان المؤكد هنا في عالم الواقع، وذلك ليس بتقصير منهم أو نقض للعهد لكن لأمر خارج عن إرادتهم.

أما آية النساء فإنها تتحدث عن إيمان كل نصراني بعيسى عليه السَّلام على أنه عبد الله ورسوله، وقد أكد الله هذا الإيمان تأكيداً ملحوظاً ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾. ولكن متى حصل إيمان هذا النصراني بعيسى عليه السَّلام؟ إنه حصل في وقت لم ينفع فيه صاحبه، الإيمان هنا ميت بموت صاحبه، ونظراً لعدم نفعه له فكأنه لم يوجد، ونظراً لعدم قبوله فكأنه لم يحصل، ونظراً لموته بموت صاحبه فكأنه لم يتحقق عملياً..

وآية الأنعام لا تخرج عن هذا.. إن المشركين أرادوا أن يحاربوا رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، فعللوا عدم إيمانهم به لعدم وجود معجزات مادية معه.. وأعلموه أنه إذا جاءهم بآية منها فإنهم سيؤمنون به.. ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ لكن هل هم صادقون في هذا الكلام؟ هل هم صادقون في هذه الأيْمان التي أقسموا بها؟ وهل سيؤمنون لو جاءتهم آية؟ الجواب بالنفي. إنهم كاذبون في أيْمانهم ووعودهم وتأكيدهم لهذا الإيمان، ولهذا يريدون أن يخفوا كذبهم بتأكيدهم وعودهم بالأيْمان.. إن الإيمان الذي أكدوه هنا لم يتحقق عملياً.

ومن هذا الباب تأكيد فرعون وقومه أنهم سيؤمنون إذا كشف الله العذاب عنهم ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ وهم كاذبون في كلامهم ووعودهم وفي تأكيدهم الوثيق لإيمانهم، لأنهم نكثوا المواثيق والعهود عندما رفع العذاب عنهم. إن إيمانهم المؤكد هنا أيضاً لم يتحقق عملياً..

نأخذ الآن نموذجاً لورود الإيمان في القرآن في صورته الإسمية، ونختار وروده اسماً منصوباً.

كم ورد الإيمان اسماً منصوباً في آيات القرآن؟ مجرداً من الإضافة والضمائر؟ لم يرد إلاّ سبع مرات.

١ ـ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

٤ ـ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

٦ ـ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ [الفتح: ٤].

٧ ـ قال تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

ما هو السياق الذي وردت فيه هذه الكلمة مجردة منصوبة في هذه المرات، وما هو إعرابها في هذه المرات؟ وما هي الحكمة التي قد تؤخذ من هذا؟

إن السياق هو سياق حديث عن المؤمنين وثناء على مواقفهم وإيمانهم، والسياق هو سياق زيادة الإيمان. وأسباب زيادتها وأثر هذه الزيادة على سلوك وموقف وتصرف المؤمن..

وكلمة الإيمان في هذه المرات السبع وقعت تمييزاً. ميزت المؤمنين في هذه المواقف بإيمانهم، وميزت الزيادة التي حصلت بأنها زيادة في الإيمان.

إن التمييز في اللغة العربية يوضح كلمة غامضة، أو يبين موقفاً مبهماً، أو يُفصل معنى مجملاً، أو يحدد شيئاً واقعاً، أو يكون جواباً على تساؤل واقع.

فلو قلنا ما الذي ازداد عند المؤمنين بتلك الآيات؟ الجواب هو الإيمان فميزناه بتحديده وتوضيحه وتبيينه، وأنه هو الذي تميز بالزيادة.

ولكن ما هي الحكمة التي يمكن أن تؤخذ من إعراب الإيمان في الآيات تمييزاً؟ لا بد من توظيف النحو واللغة والبلاغة وغير ذلك من العلوم لخدمة كتاب الله وتدبره وتفسيره، وجعْلها أدوات ووسائل لاستخراج دلالات الآية ولطائفها وحِكَمها وإيحاءاتها..

إن المؤمنين في المواطن السبعة تميزوا في إيمانهم، تميزوا بمواقفهم وثباتهم واستعلائهم، وطمأنينتهم وسكينتهم، تميزوا بهذا في الجهاد في أُحُد والفتح، وتميزوا بهذا في تلاوتهم للقرآن وسماعه وتدبره وتلقي أخباره وتقريراته وحقائقه.. تميزوا من غيرهم في ذلك، ولولا الإيمان لما تميزوا، ولولا استعلاؤهم بالإيمان لما عُرفوا عند الناس.. ثم إن هذه المواقف المضطربة ميزت إيمانهم كما ميزتهم بإيمانهم، ميزت إيمانهم ـ الذي كان يُظَن أنه سيضعف أو ينقص فيها ـ بأنه ازداد زيادة مباركة ملحوظة على الجوارح والحياة والسلوك.. ولأن المؤمنين تميزوا في مواقفهم بالإيمان، ولأن الإيمان تميز في مواقفهم بالزيادة، ولأن الموقف كله موقف تمييز ومفاصلة، وتحديد وبيان، ناسب أن تأتي كلمة الإيمان في المواضع السبعة تمييزاً منصوباً، فتميزت بكونها تمييزاً لأن أهلها متميزون.

الإسـلام والإيمـان

اختلف العلماء في المقصود بالإسلام والإيمان، هل هما مترادفان، أو متقاربان أو متغايران؟ ونحاول ـ بعون الله ـ أن نوجز الكلام حول هذا الأمر، وأن نرجح القول الذي تدل عليه الآيات والأحاديث. .

مر معنا أن الإيمان يعني عدة معان متداخلة هي: الأمن والطمأنينة والتصديق والثقة والخضوع. .

أما الإسلام فقد قال عنه ابن منظور بأنه في اللغة يعني الانقياد [لسان العرب: ٢/ ٢٩٣]، وقال عنه الإمام الراغب في المفردات بأنه من السّلْم. «والسَّلْم والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة» [٢٣٩]، «والإسلام الدخول في السَّلْم. وهو أن يَسْلَمَ كل واحد منهما أن يناله من ألم صاحبه» [٢٤٠].

وقال عنه أبو البقاء في الكليات: «الإسلام لغة: الانقياد المتعلق بالجوارح كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، والدين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، والإيمان كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الذاريات: ٣٥]، ثم ذكر فاء التعليل فقال: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٦] فالمناسب أن يراد بالمؤمنين المسلمين» [الكليات: ١/ ١٧٠].

فالإسلام في اللغة ـ كما ذكر الأعلام الثلاثة ـ يدور على هذه المعاني «الانقياد والخضوع والاستسلام، والسلامة من الآفات والآلام» وهذه المعاني متحققة في الإسلام بمعناه الاصطلاحي والشرعي.

والإسلام شرعاً قال عنه أبو بكر محمد بن بشار ـ فيما نقله ابن منظور في لسان العرب ـ يقال: فلان مسلم. وفيه قولان..

أحدهما: هو المستسلم لأمر الله. والثاني: هو المخلص لله العبادة.

وقال عنه ابن منظور: «هو إظهار الخضوع وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبي ﷺ وبذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه» [لسان العرب: ١٢/٢٩٣].

وقال عنه أبو البقاء: «وشرعاً: هو على نوعين: دون الإيمان وهو الاعتراف باللسان وإن لم يكن له اعتقاد، وبه يحقن الدم.. وفوق الإيمان: وهو الاعتراف مع الاعتقاد بالقلب، والوفاء بالعمل..» [الكليات: ١/١٧٠].

وعرفه الإمام الجرجاني بقوله: «هو الخضوع والانقياد لما أخبر به رسول الله ﷺ» [التعريفات: ١٠].

أما الإسلام في الاستعمال القرآني فقد قال عنه الإمام الأصفهاني: «والإسلام في الشرع على ضربين:

أحدهما: دون الإيمان: وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل، واياه قصد بقوله: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

والثاني فوق الإيمان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب

ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السَّلام في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ [يوسف: ١٠١] أي اجعلني ممن استسلم لرضاك» [المفردات: ٢٤٠ ــ ٢٤١].

وعند المقارنة بين تعريف الإسلام عند الأصفهاني وأبي البقاء الكفوي، نلاحظ أن الثاني أخذ كلام الأصفهاني واختصره وحذف أدلته.. وهذا مظهر من مظاهر تفرد وأصالة الإمام العالم القرآني الراغب الأصفهاني.. واعتماد اللاحقين عليه وتبنيهم لآرائه.. رحمه الله.

هذا وقد فرق القرآن بين الإسلام والإيمان:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: ١٤ ــ ١٥].

فجعل الأمر على مرحلتين: المرحلة الأولى الإسلام: وهي الانقياد في الظاهر لرسول الله ﷺ، والاعتراف في اللسان بهذا الدين. وهذه المرحلة لا تكفي لاعتبار صاحبها مؤمناً مستسلماً لله سبحانه وتعالى.

المرحلة الثانية: الإيمان: وهي التصديق والطمأنينة والثقة والخضوع المطلق لله ولرسوله، وهي إدخال الإيمان في القلوب ومحبتها له وتزيينها به.. ومَن حقق المرحلة الأولى، وسار في الطريق بصدق وهمة وجدية نحو المرحلة الثانية فإنه سيحصل عليها ويحققها.

وإن الآية الكريمة إذ نفت عن الأعراب وصولهم إلى المرحلة الثانية،

فإنها لم تجعلها صعبة بعيدة المنال. ولم تقذف في قلوبهم اليأس من إمكانية وصولها. بل على العكس من ذلك سهلت الطريق ورغبتهم به وأغرتهم بالسير فيه، وراحت تحدوهم وتحث خطاهم وتشحذ هممهم للوصول.. نأخذ هذا كله من الحرف العجيب «لما» في قوله: «ولما يدخل الإيمان في قلوبكم»، فإن لم تدركوا الأمر وتحصلو عليه حتى الآن، فإنه قريب قريب وسهل مريح، وأنتم الآن تقتربون منه وتوشكون على الوصول إليه. قال الإمام القُمّي النيسابوري: «ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم» فيه فائدة زائدة هي أن يعلم أن الإيمان متوقع منهم. لأن لمّا حرف فيه توقع وانتظار» [غرائب القرآن للنيسابوري: ٢٦/ ٩٥].

وحتى لا يبقى الأعراب في عمه وتيه وضياع في موضوع الإيمان وحقيقته وتحققه، ذكرت الآية الثانية نماذج للمؤمنين الذين أحبت قلوبهم الإيمان فدخل فيها وشع في جوانبها فتزينت به.. إنهم آمنوا ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.. إنهم جمعوا بين الإيمان والإسلام، جمعوا بين الإيمان والعمل، جمعوا بين التصديق واليقين والجهاد..

والآيتان الكريمتان جعلتا الإسلام على ضربين: الأول دون الإيمان وهو إسلام الأعراب في الآية الأولى، والثاني فوق الإيمان وهو إسلام المؤمنين وإيمانهم العملي في الآية الثانية.

وقد فرّق رسول الله ﷺ بين الإسلام والإيمان.. فقد روى البخاري ـ في كتاب الإيمان باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أعطى شخصاً وسعد جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ فقلت: يا رسول الله: ما لَكَ عن فلان، فوالله إني لأراه

مؤمناً، فقال: أوْ مسلماً، فسكتُّ قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي فقلت: ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً، فقال: أوْ مسلماً، فسكتُّ قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: يا سعد إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار».

قال ابن حجر في الفتح: «إن المسلم يطلق على من أظهر الإسلام وإن لم يُعْلم باطنه، فلا يكون مؤمناً، لأنه ممن لم تصدق عليه الحقيقة الشرعية، وأما اللغوية فحاصلة» [١/ ٧٤].

وقال ابن حجر في شرح قوله: أو مسلماً «أو: قيل هي للتنويع، وقال بعضهم هي للتشريك. وأنه أمره أن يقولهما معاً لأنه أحوط، ويردُّ هذا رواية ابن الأعرابي في معجمه في هذا الحديث: فقال: لا تقل مؤمن بل قل مسلم» فوضح أنها للإضراب.. وليس معناه الإنكار، بل المعنى أن إطلاق المسلم على من لم يختبر حاله الخبرة الباطنة أولى من إطلاق المؤمن، لأن الإسلام معلوم بحكم الظاهر» [فتح الباري: ١/ ٧٤ ــ ٧٥].

وقال ابن حجر في ما يؤخذ من الحديث من دلالات: «وفي حديث الباب من الفوائد: التفرقة بين حقيقتي الإسلام والإيمان» [١/ ٧٥].

وقد فرّق رسول الله ﷺ في حديثه المشهور الذي رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر الشعر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه.. وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن

لا إلَه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.. قال: صدقت..» [مسلم بشرح النووي: ١/١٥٧].

وطالما فرق القرآن والحديث بين الإسلام والإيمان فنحن ملزمون بالقول بالفرق بينهما، وبنفي ادعاء ترادفهما، لأن الترادف غير موجود في لغة العرب ولا في مفردات القرآن الكريم، قد تكون الكلمتان متقاربتين تقارباً شديداً في معانيهما، لكن لا بد من وجود فروق ولو دقيقة جداً بينهما، وهذه الفروق تخفى على الإنسان العادي أو الباحث العجول، لكنها لا تخفىٰ على المتأمل البصير فيهما..

فما هو الفرق بين الإسلام والإيمان؟

تعددت أقوال العلماء وتباينت في التفريق بينهما، ونحن نذكر أهمها ونرجح المناسب منها بعون الله:

ذكر ابن منظور في اللسان قول ثعلب في التفريق فقال: «الإسلام باللسان، والإيمان بالقلب» [لسان العرب: ١٢/٢٩٣].

كذلك أورد كلام الإمام الأزهري فقال: «قال الأزهري: إن هذا يحتاج الناس إلى تفهمه، ليعلموا أين ينفصل المؤمن من المسلم وأين يستويان.. فالإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به سيدنا محمد ﷺ، وبه يحقن الدم. فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان الذي هذه صفته» [اللسان: ١٢/٢٩٤].

وقال أبو البقاء في الكليات: «واعلم أن مختار جمهور الحنفية

والمعتزلة وبعض أهل الحديث أن الإيمان والإسلام متحدان.. وعند أبي الحسن الأشعري أنهما متباينان، وغاية ما يمكن في الجواب أن التغاير بين مفهومي الإسلام والإيمان، لا ما صدق عليه المؤمن والمسلم».

وقد ظهر لنا من الأدلة التي أوردناها خطأ الذين لم يفرقوا بين الإسلام والإيمان ــ جمهور الحنفية والمعتزلة وبعض أهل الحديث ــ وأن الراجح هو ما ذهب إليه جمهور المحدثين والمفسرين من التفريق بينهما اتباعاً لتلك الأدلة.

وقال أبو البقاء: «اعلم أنه ذُكر في كتب أصول الشافعية أن الإيمان هو التصديق القلبي.. ولا يعتبر التصديق المذكور إلاَّ مع التلفظ بالشهادتين من القادر عليه..

والإسلام أعمال الجوارح من الطاعات كالتلفظ بالشهادتين وغير ذلك.. فلا تعتبر الأعمال المذكورة إلاَّ مع الإيمان أي التصديق المذكور..» [الكليات: ١/ ١٧١ باختصار].

ويتابع أبو البقاء قوله في الجمع بين مفهومي الإسلام والإيمان «وعن بعض المشايخ الإيمان تصديق الإسلام، والإسلام تحقيق الإيمان».

والحاصل أن بينهما عموماً وخصوصاً: فالعام هو الإيمان، والخاص هو الإسلام الذي هو فعل الجوارح، فإن المنافق مسلم وليس بمؤمن» [الكليات: ١/ ١٧١ ــ ١٧٢].

وفرَّق بينهما أبو هلال العسكري في كتابه الفريد «الفروق في اللغة» بما يلي: «الإيمان طاعة الله التي يؤْمَن بها العقاب على ضدها، وسميت النافلة إيماناً على سبيل التبع لهذه الطاعة، والإسلام طاعة الله التي يَسْلَم بها من عقاب الله. وصار كالعَلَم على شريعة محمد ﷺ» [الفروق في اللغة: ٢٢٢].

وقد أورد الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم أقوال بعض المحَدثين في التفريق بينهما: «قال الخطابي: والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام في هذا ولا يطلق، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال، ولا يكون مؤمناً في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً.. وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات، واعتدل القول فيها» [شرح النووي على مسلم: ١/ ١٤٥].

وأورد قول الإمام ابن الصلاح في ذلك: «قوله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.. والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره.. قال هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن، وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر.. وحكم الإسلام في الظاهر ثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليهما الصلاة والزكاة والصوم والحج لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها، وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله.

ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في هذا الحديث وسائر الطاعات، لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، ومقويات ومتممات وحافظات له، ولهذا فسر ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخُمس من المغنم.. ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو بدل فريضة، لأن اسم الشيء مطلقاً يقع على الكامل منه، ولا يستعمل في الناقص

ظاهراً، ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن.

واسم الإسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن، ويتناول أصل الطاعات فإن ذلك كله استسلام.

فخرج مما ذكرناه وحققناه. أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان، وإن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً.

وهذا تحقيق وافر بالتوفيق بين متفرقات نصوص الكتاب والسنّة الواردة في الإيمان والإسلام التي طالما غلط فيها الخائضون» [شرح النووي على مسلم: ١/ ١٤٧ ـ ١٤٨].

ونختار من المفسرين إمامَهم ابن جرير الطبري الذي يقول في آية الحجرات: «إن الله أمر نبيه ﷺ أن يخبر الأَعراب بأنهم أسلموا فقط؛ لأن القوم كانوا صدقوا بألسنتهم، ولم يصدقوا قولهم بفعلهم. فقيل لهم قولوا أسلمنا لأن الإسلام قول والإيمان قول وعمل».

ثم أورد الطبري قول الزهري «الإسلام الكلمة، والإيمان العمل» [تفسير الطبري: ٢٦/ ٨٩] وقد رجح الطبري قول الزهري وتبناه [٢٦/ ٩٠].

كما نشير إلى رأي الإمام ابن كثير في تفسيره لآية الحجرات وهو: «إن الإيمان أخص من الإسلام» وإن «الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين. وإنما هم مسلمون لم يتحكم الإيمان في قلوبهم، فادَّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأُدبوا في ذلك» [تفسير ابن كثير: ٤/ ٢١٩].

ونختم هذه الأقوال بقول الإمام ابن تيمية في كتاب «الإيمان» في

الحديث عن الإسلام والإيمان والفروق بينهما: فبعد أنْ ذكر طائفة من الأحاديث الصحيحة التي فرقت بين الإيمان والإسلام قال: «لما ذُكر الإيمان مع الإسلام جُعِل الإسلام هو الأعمال الظاهرة: الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج.. وجُعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..

وإذا ذُكِر الإيمان مجرداً دَخَل فيه الإسلام والأعمال الصالحة، كقوله في حديث الشُّعَب: الإيمان بضع وسبعون شعبة.. وكذلك سائر الأحاديث التي يُجْعل فيها أعمالُ البر من الإيمان..

ثم إنْ نفى الإيمانَ عند عدمها دل على أنها واجبة، وإنْ ذَكرَ فضلَ إيمان صاحبها ـ ولم ينف إيمانه دل على أنها مستحبة..» [الإيمان: ١٠ ـ ١١ باختصار].

ويحدد الفرق بين الإيمان والإسلام انطلاقاً من أحاديث رسول الله ﷺ «التحقيق ابتداءً هو ما بيَّنه النبي ﷺ لمّا سُئل عن الإيمان والإسلام ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة، فليس بنا إذا جمعنا بين الإيمان والإسلام أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ.. وأما إذا أُفرد الإسلام فإنه يتضمن الإيمان. وإذا أُفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع..» [الإيمان: ٢٤٦].

«وحقيقة الفرق بينهما أن الإسلام دين، والدين مصدر دان يدين ديناً، إذا خضع وذل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله، هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده، بعبادته وحده دون سواه..

وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة، فهو من باب قول القلب

المتضمن عمل القلب، والأصل فيه التصديق، والعمل تابع له، فلهذا فسر النبي ﷺ الإيمان بإيمان القلب وبخضوعه، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وفسر الإسلام باستسلام مخصوص هو المباني الخمسة، وهكذا في سائر كلامه ﷺ، يفسر الإيمان بذلك النوع، ويفسر الإسلام بهذا، وذلك النوع أعلى..» [الإيمان: ٢٤٩ ــ ٢٥٠].

والآن بعد ذكر الأقوال والأدلة في التفريق بين الإسلام والإيمان نلخص هذا الموضوع بما يلي:

الإسلام والإيمان ليسا مترادفين، فقد وردت آيات وأحاديث في التفريق بينهما ونرى ــ كما رأى جمهور العلماء والله أعلم ــ أن الإيمان أعم من الإسلام، فقد مر معنا أن الإيمان قد يطلق على التصديق فقط، وقد يطلق على التصديق والعمل.. أما الإسلام فإنه يطلق ويراد به الاستسلام والخضوع لله. بأداء ما طلبه الله من المسلم من الواجبات والأعمال ــ وعلى هذا نحمل قول الله تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٤ ــ ١٥].

فجعلت الآية الأولى الإسلام تمهداً للإيمان ومقدمة له، وقصرته على الخضوع لله. وأما الإيمان فقد جعلته الآية الثانية شاملاً للإسلام وأداء الأعمال، حيث أدخلت فيه الجهاد في سبيل الله.

هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى آيات أخرى في القرآن جعلت الإسلام أعم من الإيمان، حيث كان شاملاً للدين كله وخضوع المسلم لرب العالمين في العقيدة والعبادة والحياة والتشريع.. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فهذا الإسلام هو الدين الإسلامي كله بما فيه من إيمان واستسلام وشعائر وشرائع ومناهج ونظم..

وكما في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السَّلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: ١٣١]، وإسلام إبراهيم لربه في هذه الآية هو خضوعه المطلق في قلبه وجوارحه وكيانه كله..

وكما في قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والقائل هنا هو نبيّنا محمد ﷺ، وإسلامه ليس مجرد الاستسلام والخضوع، بل هو الإسلام بمفهومه العام الشامل للإيمان والإسلام.

وكلمة الإسلام وردت في القرآن الكريم مفردة مجردة في صيغة المصدر ست مرات وهي في المرات الست يراد بها الإسلام بمفهومه العام، الشامل للإسلام الظاهري والاستسلام الخارجي، وللإيمان الداخلي والتصديق الباطني.. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ [الصف: ٧].

والإسلام في هذه الآيات الست مراد به ديننا الإسلامي الحنيف الذي رضيه الله لنا ديناً، وسمانا باسمه إبراهيم الخليل المسلم لرب العالمين عليه الصَّلاة والسَّلام، وديننا الإسلامي ليس خاصاً بالخضوع لله بأعمال الجوارح، بل هو عام شامل للإيمان والاستسلام، للعقيدة والعبادة، للفرد والمجتمع..

وكلمة «مسلمون» وردت في القرآن خمس عشرة مرة في حالة الرفع، وكلها يؤخذ منها ويفهم منها الإسلام باعتباره أعم من الإيمان. .

ونظراً لهذا الأمر نرى بين الإسلام والإيمان تقارباً كثيراً في المعاني، بل «تناوباً» في الدلالة على هذه المعاني، حيث رأينا الإيمان يراد به أحياناً ما يراد به الإسلام، ورأينا الإسلام يراد به أحياناً ما يراد به الإيمان.

ويعجبني تفريق ابن تيمية وبيانه الصلة بينهما والتداخل في معانيهما: «إذا ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة، وجعل الإيمان ما في القلب. . وإذا ذكر الإيمان مجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال الظاهرة، وإذا ذكر الإسلام مجرداً دخل فيه الإيمان والتصديق».

كما يعجبني رأي الإمام الراغب الأصفهاني في جعله الإسلام على ضربين، ويستعمل باستعمالين: الأول دون الإيمان باعتباره مقدمة له ومرحلة أولى توصل إليه، فالمسلم يدخل في الإسلام بنطقه الشهادتين وأدائه الواجبات. . ويترسخ الإيمان في قلبه تدريجياً وعلى مهل وببطء حتى يملأ عليه قلبه ويوجه له حياته. . والثاني فوق الإيمان، باعتباره شاملاً له وللعبادات، شاملاً للعقيدة والعبادة والإيمان والعمل والدين والحياة.

وإنما جُعل الإسلام إيماناً لأنه ثمرة من ثمار التصديق وطُمأنينة القلب، يعني ثمرة من ثمار الإيمان. وإنما جُعل الإيمان إسلاماً لأنه جانب من جوانبه ومجال من مجالاته، لأن الإيمان هو إسلام القلب وقوله وعمله واستسلامه. .

ويطيب لي في ختام هذا المبحث أن أُطْلع القارىء على الربط البديع بين الإسلام والإيمان الذي بيّنه الإمام الحكيم الترمذي في كتابه الفذ الفريد «تحصيل نظائر القرآن» الذي لا يغني عنه غيره في هذا الباب.

«الإسلام مشتق من التسليم فالعبد إذا جاءه نور الهداية: عرف ربه واطمأن إليه وسكنت نفسه، واستقر قلبه بالمعرفة الواردة على قلبه، فانقاد له بأن يأتمر بكل ما يأمر به، فذاك من العبد تسليم النفس إلى ربه عبودة..

١ ـ الإيمان: وإنما سمي «مؤمناً» لاستسلام قلبه، وطمأنينة نفسه، فالإسلام والإيمان من العبد في عقد واحد، لمَّا عرفه استقر قلبه واطمأنت نفسه، فلزمه اسم الإيمان لطمأنينته.. وسلَّم نفسه لله عبودة بكل ما يأمره، فلزمه اسم الإسلام، فهذان الاسمان لزماه بهذا العقد الواحد الذي اعتقده بقلبه، ثم اقتضى الوفاء بهذا الإيمان والإسلام إلى يوم يموت.. فإن وفّى دخل الجنة بغير حساب، وإن وفى ببعض وضيع بعضاً بقي في الموقف للحساب، فإنما وقع الحساب على الموحدين لهذا..

والعبد من ربه بين أمرين:

(أ) بيْن أمر حكم الله عليه به مثل: العز والذل، والغنى والفقر، والحب والكره فاقتضى الوفاء له بأن يطمئن إلى حكمه كما اطمأن إليه، فيرضى بما حكم.. فإن جزع حوسب، وإن رضي أُكرم وأثيب على وفائه..

(ب) وبيْن أمر أمره أن يفعله مثل الفرائض واجتناب المحارم.. فإذا وفّى بهذا فهو مسلم، لأنه قد سلم نفسه إليه عند كل أمر ونهي، وما ضيع منه فالحساب لازم، وهو موقوف بين عفو أو عقوبة..

٢ ـ الإخلاص: وإنما صار الإسلام «الإخلاص» في مكان آخر: لأنه إذا أخلص بقلبه التسليم فقد لزمه هذا الاسم، وإنما صار إخلاصاً: لأن المشرك لم يخلص. وصار المشرك مُسْلماً نفسه إلى الله مرة وإلى الوثن

مرة، فلم يكن تسليمه خالصاً. وتسليم المسلم خالص لا شوب فيه. فالمشرك ذو علاقة، علق قلبه بالله، وعلق قلبه بالوثن، فهذا كشرك الصياد، يقع فيه الطير فيتعلق ببعض حبائله، فهو يطير ويمد شَرَكه الذي قد تعلق به إلى الأرض. فكذلك المشرك: قلبه يطير إلى ربه بمعرفة الفطرة ويمده حب الوثن إلى الوثن.. والمؤمن خلصه الله بما منَّ عليه من نور التوحيد ــ وفي نور التوحيد حبه ــ ومنَّ عليه بالعقل ــ خلق العقل من نور البهاء ــ ليزين الأشياء الحسنة في صدره، فلما وافاه العقل من الله، ووفاه نور التوحيد وحشوه المحبة لله، انقطعت حبالة الشرك، فطار قلبه إلى الله فصار له خالصاً، أي قد تخلص من الحبالة كما تخلص هذا الطير من حبالة الصيد.

وذلك قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ ثم قال: ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ [الحجرات: ٧]، فإنما حببه بالمحبة، وزينه بالعقل، بالكراهية ذهبت الشهوة التي كان يجدها من عبادة الوثن، فالحب كرهها إليه..

٣ ــ الإقرار: وإنما صار الإسلام «الإقرار» في مكان آخر، لأن هذا أظهر الإسلام بلسانه، فقيل: أسلم: أي بلسانه.

أما الإيمان فإنه:

١ ــ التصديق: فإنما صار الإيمان في هذا المكان «التصديق» لأن التصديق فعل القلب، فإنما يصدق العبد بعد الطمأنينة والاستقرار، فذاك التصديق منه تحقيق الاستقرار والطمأنينة..

٢ ــ التوحيد: وإنما صار الإيمان التوحيد في مكان آخر: لأنه إنما يوحد القلب إذا اطمأن.. [تحصيل نظائر القرآن: ١٢٢ ــ ١٢٥].

● ● ●

العقيـدة والإيمـان

عبر كثير من الكاتبين المسلمين عن الإيمان بالعقيدة، وبحثوا مباحث الإيمان وأركانه وقضاياه وخصائصه كموضوعات عقيدية ضمن مباحث وفصول وأبواب العقيدة.. وظهرت مؤلفات كثيرة تحمل اسم العقيدة: عقيدة المؤمن، العقيدة الإسلامية، العقائد الإسلامية.. وغيرها. وهؤلاء الكاتبون ليسوا في العصر الحديث فقط بل منهم من عاش في القرون الإسلامية الماضية..

واختار الأستاذ الإمام سيد قطب مصطلحاً آخر عبر فيه عن العقيدة ومباحثها والإيمان وقضاياه.. وهو مصطلح «التصور الإسلامي» باعتبار أن العقيدة هي في تصور المسلم وفكره ومعلوماته، وتعطيه تصوره لنفسه ولرسالته والوجود من حوله، وتعرفه على ربه والمخلوقات من حوله.. وأصدر كتابه «خصائص التصور الإسلامي» الذي يعتبر من أهم وأنفع كتب العقيدة.. ونحن بانتظار شقيقه الأستاذ محمد قطب لينشر لنا كتابه الثاني «مقومات التصور الإسلامي» الذي يتوقع الباحثون أن يكون أهم وأنفع من كتابه الأول[1].

ولا يضير العلماء تقديمهم موضوعات الإيمان ضمن مصطلح «العقيدة» كما لا يضير سيد قطب أن يخالفهم ويقدم هذه الموضوعات ضمن مصطلح «التصور الإسلامي» لأن المصطلحين ليسا غريبيْن على

(١) نشر الأستاذ محمد قطب كتاب «مقومات التصور الإسلامي» عام ١٩٨٦، وطبعة دار الشروق.

تصورنا الإسلامي وعقيدتنا الإسلامية، ولأن المضمون الذي عرضاه مضمون صحيح مأخوذ من مقررات الإسلام وحقائقه.. فاستعمال المصطلحين في المؤلفات والمحاضرات والكتابات جائز.. وقديماً قال العلماء: «لا مشاحة في الاصطلاح».

ولكن وقفتنا هنا لنتساءل: هل عرض القرآن مقررات الإيمان، وحقائقه ضمن مصطلح العقيدة، أو ضمن مصطلح التصور الإسلامي؟ وهل عرضها رسول الله ﷺ ضمن هذين المصطلحين؟ وهل عرضها الصحابة الكرام ضمنهما؟ الجواب بالنفي.

عرضها القرآن ضمن المصطلح اللطيف والكلمة الحبيبة «الإيمان» وعرضهما رسول الله ﷺ والصحابة الكرام ضمن نفس الكلمة. ولا شك أن العودة إلى تعبير القرآن والرسول عليه السَّلام أنفع وأولى ــ مع جواز المصطلحات الأخرى ــ ولا شك أن كلمة «الإيمان» أرق معنى وأشف ظلاً وأدل على المقصود من الكلمات الأخرى. والأوْلى أن نستخدم مصطلحات القرآن، ونعبر بألفاظ القرآن، ونحيي كلمات القرآن..

وردت في القرآن مادة «عقد» واشتقاقاتها في ستة مواضع هي عُقد الساحرات: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ٤]، وعقدة اللسان كما في دعاء موسى عليه السَّلام: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧﴾ [طه: ٢٧]، وعقدة النكاح: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، و ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وعقدة النكاح: أي عقد النكاح وإجراؤه بين الرجل والمرأة.. ومنها العقود في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، والعقود هي العهود التي قطعها المؤمن على نفسه بينه وبين ربه أو بينه وبين الناس [انظر الطبري: ٦/ ٤٤٩ ــ ٤٥٥].

كما استعملت مادة «عقد» في الأيمان قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ [النساء: ٣٣]، وهم الذين عقدوا الأحلاف والاتفاقيات والعهود معهم، وأوكدوا وشدوا ووثقوا المواثيق بينهم وبينهم [الطبري: ٨/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤].

وعقد الأيمان في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ [المائدة: ٨٩]، وعقدتم الأيمان يعني وكدتموها ورددتموها.. وهي اليمين التي تعمدها صاحبها [انظر الطبري: ١٠/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥].

والعَقد معناه كما قال الإمام الراغب الأصفهاني «الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء. ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرها، فيقال: عاقدته وعقدته وتعاقدنا وعقدت يمينه» [المفردات: ٣٤١].

ولما في معنى العقد من الجمع والضم والقوة والمتانة، والإلزام والتوثيق، عبروا عن موضوعات الإيمان بكلمة «العقيدة» التي لا يمكن أن تتزعزع أو تزول..

لكننا ـ وإن أجزنا استعمال ذلك المصطلح ـ نؤثر ونفضل استعمال المصطلح القرآني والنبوي وهو «الإيمان» ونحب أن نعرض كافة موضوعات العقيدة الإسلامية ومباحثها وأسسها وأركانها ضمن هذا الإطار الإيماني، ومن خلال هذا المصطلح القرآني.. ونتمنى على الكاتبين والمحاضرين والخطباء أن يستخدموا كلمة «الإيمان» بدل كلمة العقيدة أو التصور، وأن تحل في كتاباتهم وخطاباتهم وندواتهم هذه الكلمة القرآنية.

إن لألفاظ القرآن أنوارها الخاصة، وإن لمصطلحات القرآن ظلالها

الـوارفـة، وإن لتعبيـرات القـرآن إيحـاءاتهـا اللطيفـة، ومعـانيهـا الجـانبيـة، ومقاصدها الثانوية، ولا نرى أن نتجاوزها إلى مصطلحات وألفاظ أخرى لا تملـك هـذه الـوفـرة، ولا تحـوي هـذا الـرصيـد مـن الصـور والظـلال والإيحاءات والمقاصد.

كلمـة «الإيمـان» أولـى وأفضـل مـن كلمـة العقيـدة، لأنهـا تشيـع فـي الأجواء عندما تُكتب أو تُنطق معاني الأمن والثقة، وتلقي ظلال الطمأنينة واليقيـن، وتـوحـي بمعـانـي الإلـزام والتصـديـق والخضـوع، وتطلـق إيحـاءات الثبات والدوام والمتانة والحيوية. . وكلمة «العقيدة» لا تتضمن كل هذا.

وقديماً ألَّف علماء من أهل السنّة مؤلفاتهم بهذا العنوان «الإيمان» وقدموا موضوعات العقيدة ومباحثها وقضاياها من خلال هذا المصطلح «الإيمـان» وفـي طليعـة هؤلاء ــ علـى سبيـل التمثيـل وليس الحصـر ــ الإمـام محمد بن نصر المروزي في كتاب «الإيمان»، والإمام ابن تيمية في كتاب «الإيمان».

ومن المُحْدَثين المعاصرين من عرض هذه الموضوعات تحت هذا العنوان نذكر منهم ــ على سبيل التمثيل أيضاً ــ «الإيمان» للأستاذ يوسف العظـم، و «الإيمـان» للدكتـور حسـن الترابـي. و «الإيمـان» للـدكتـور محمـد نعيم ياسين. و «الإيمان والحياة» للدكتور يوسف القرضاوي.

• • •

إيمــان وإيمــان

نظرة بعض المسلمين إلى الإيمان نظرة خاطئة، وفهمهم له فهم مشوش، وتعاملهم معه تعامل بارد، وصلتهم به صلة جامدة.. ومن ثم لا يوجِدون الإيمان كما يريد الله، ولا يعيشونه كما يريد الله.

الإيمان عند هؤلاء هو المعرفة، المعرفة الذهنية العقلية، فيقولون: نحن نؤمن بالله بمعنى أننا نعترف بوجوده، ونؤمن بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر فنعترف بها.. والمعرفة عندهم لا تعدو عقولهم وتصوراتهم، ويظنون هذه المعرفة هي الغاية المرجوة، والصورة المثلىٰ للإيمان.. أما ماذا جنوا من هذه المعرفة للإيمان وأركانه، وما هو وضع سلوكهم وحياتهم وواقعهم وتأثرها بهذه المعرفة فهذا ما لم يفكروا فيه. لأنه خارج عن دائرة الإيمان..

الإيمان هو التصديق، فيقولون: نحن نؤمن بالله فنصدق بوجوده ونصدقه، ونصدق رسول الله ﷺ فيما يقول به، ونصدق كتاب الله، ونصدق باليوم الآخر لكن في أية حاسة يصدقون، وبأية وسيلة يصدقون، ما هي درجة حياة وحيوية هذا التصديق؟ إنه التصديق العقلي الذهني البارد، إنه التصديق النظري المجرد، إنه التصديق الذي لا يعدو أن يكون رأياً أو فكراً أو نظراً أو فلسفة.. أما حياة التصديق وحيويته، أما ثمار التصديق ومكاسبه، أما تأثر الكيان والواقع بهذا التصديق فهذا ما يعتبرونه خارجاً عن دائرة الإيمان!!

الإيمان عند هؤلاء مشاعر وعواطف وانفعالات، وسبحات فكر، وخطرات خيال، ورؤى نفس، وتعتبر نوعاً من المتعة الذهنية العقلية، والرياضة التصورية، والسياحة الخيالية.. يقوم بها صاحبها من باب العمل النظري والتسلية الذهنية أو إشغال الوقت..

الإيمان عند هؤلاء «سلعة» خاصة وبضاعة خاصة، له أماكن خاصة وأجواء خاصة وأناس مخصوصون، إنه حديث ممتع في جلسة مناسبة مع أناس مسلمين، وتعبير عن شعور غامر وتصور طيب مع هؤلاء، فإذا ما غادر المتحدث هذه الجلسة التي روج فيها لهذه السلعة، خالف ما كان يتحدث عنه، وانتقل إلى موقع آخر يروج سلعة أخرى لأناس آخرين حسب ميولهم ورغباتهم.. فإيمان هذا متقلب حسب المناسبات.. متأثر بالظروف والملابسات، يصلح أن يكون كلاماً في المحاضرات، أو حديثاً في الجلسات والندوات، أو صياغة جميلة منمقة في المقالات والكتابات.. أما أن يكون الإيمان حالة دائمة ثابتة لصاحبه، وجواً حياً يملأ عليه حياته وواقعه، ومنهاج حياة له في ليله ونهاره فهذا ما لا يفكر فيه..

ولهذا عندما ننظر في إيمان هؤلاء نجده إيماناً ذهنياً بارداً أقرب إلى الرأي الذهني منه إلى الإيمان، وإيماناً نظرياً جامداً أقرب إلى المعرفة منه إلى الإيمان، وكلمات وعبارات مصروفة بدون حساب أقرب إلى الثقافة منها إلى الإيمان..

إيمان هؤلاء لا يغادر الذهن إلى القلب، ولا يصل بين العقل المجرد والكيان المنفعل، ولا يحيا وينمو ليكون عملاً خيِّراً وحياة هادية، ونوراً عميماً لصاحبه وللآخرين.

هؤلاء لم يصلوا بعد إلى مرحلة الإيمان الإسلامي الرباني القرآني،

فهم ما زالوا في دائرة المعرفة والتصديق والإقرار. هؤلاء لم يعيشوا هذا الإيمان، ولو يغرسوا شجرته، ولم يقطفوا ثمرته، ولم يجدوا حلاوته، ولم يذوقوا طعمه، ولم يتبوؤا نزله، ولم يتفيئوا ظلاله..

هؤلاء بزعمهم الإيمان الرباني لا يختلفون كثيراً عن الأعراب في قوله تعالى: ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات: ١٤].

ومن قال إن الإيمان هو المعرفة النظرية الذهنية الباردة التي لا تدخل القلب ولا تنعكس على الحياة؟.. ألم يكن إبليس عارفاً بالله سبحانه وتعالى رغم معصيته به؟ لقد كان عارفاً بالله وصفاته ولهذا قال لربه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [صَ: ٨٢ ــ ٨٣].

وموسى عليه السَّلام يقرر فرعونَ بأنه يعرف الله، ويعلم أن غير الله لا يكون إلٓهاً، ومع ذلك لم يعتبر علم فرعون ولا معرفته إيماناً قال: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وأهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جازمة قاطعة، وأنه الرسول الحق الذي بشرت به كتبهم، وهذه المعرفة كمعرفتهم أبناءهم أو أكثر. ومع ذلك لم يُعتبروا مؤمنين بمجرد هذه المعرفة، بل كانوا من ألد أعداء هذا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٠].

وأبو طالب ــ عم رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام ــ كان يعرف تماماً أنه رسول الله وأن دينه خير دين، وكم حمى رسول الله ﷺ ودافع عنه ــ عصبية عشائرية وليس إيماناً وتصديقاً ــ وكم رغب رسول الله ﷺ في أن يؤمن عمه وينطق بالشهادتين.. ومع ذلك رفض، ولم يحاول أن يجعل معرفته وعلمه إيماناً وإسلاماً وتصديقاً واستسلاماً..

ويروي له الرواة أشعاراً قالها في هذا الخصوص مخاطباً النبي ﷺ:

والله لن يصلوا إليكَ بجمعهم ... حتى أُوَسَّدَ في التراب دفيناً
فاصدعْ بأمرك ما عليك غَضاضةٌ ... وابشر بذاك وقرَّ منه عيونا
ودعوتَني وزعمتَ أنك ناصِحي ... ولقد صَدقْتَ وكنتَ ثَمَّ أمينا
وعرضْتَ ديناً لا محالةَ أنه ... من خير أديانِ البريةِ دينا
لولا الملامةُ أو حَذارُ مسبَّة ... لوجدْتَني سمحاً بذاك مُبينا

[انظر الروض الأُنُف للسهيلي بتحقيق الوكيل: ٣/ ٥٥].

والتصديق كذلك ـ التصديق المجرد بالذهن فقط ـ لا يعتبر إيماناً ولا يمثل الإيمان ما لم يتبعه الالتزام والعمل، وما لم يوافقه السلوك والواقع. .

التصديق تصديقان: تصديق ذهني بارد جامد ميت لا ينفع صاحبه في الدنيا، وتصديق حي فاعل عامل مؤثر فهو المعتمد والنافع والمقبول. .

ولقد سمعت أستاذنا الدكتور همام سعيد ـ حفظه الله ـ يضرب هذا المثل مفرقاً فيه بين تصديق وتصديق ليظهر الفرق بين إيمان وإيمان. .

يقول: لو أن رجلاً ثقة أخبرك بأن ابنك ـ مثلاً ـ مريض وأنه قد حُمل إلى المستشفى. . فماذا تفعل؟

إنْ قلتَ لذلك الرجل: أنت صادق ولقد صدَّقْتُك في إخبارك. . ثم بقيت كما أنت لم تغير جلسة أو وضعاً ولم تحاول الاطمئنان على ابنك، فأنت مصدِّق، لكن تصديقك هذا بارد جامد لا خير فيه ولا نفع لك ولا لغيرك. .

وإنْ قلتَ للرجل: أنت صادق، ولقد صدَّقْتك، ثم خرجت فوراً

بلهفة واهتمام بارزين على كيانك، وسارعت إلى المستشفى، وما هي إلاَّ لحظات حتى تكون فوق رأس ابنك لتطمئن عليه.. فأنت مصدِّق، ولكن تصديقك هو الحي والمعتبر والنافع والحار.. فهما تصديقان إذن. وشتان بينهما..

وهكذا الإيمان!!.

إن اكتفيتَ بالإيمان الذهني، والتصديق النظري بقضاياه ومقرراته وأبقيتها في ذهنك فقط، فهذا إيمان خامد جامد بارد ميت، لا ينفعك في الدنيا، ولا يثبت قدميك على طاعة الله، ولا يوصلك إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الجنة يوم القيامة، وإن كان يحول بينك وبين الخلود في نار جهنم..

أما إذا قمت بتوصيل ما بين ذهنك وقلبك، وما بين عقلك وضميرك، وجعلت المقررات التي آمنت بها وصدقت في قلبك ووجدانك، ومزجتها بالحياة والنور والحيوية، وانتقلتْ للخارج في صورة عمل صالح وسلوك خيِّر، وقطفتَ ثمار هذا الإيمان في الواقع والحياة.. فهذا هو الإيمان الحي.. الإيمان الرباني، الإيمان الإسلامي، الإيمان القرآني، الإيمان الذي كان يعيشه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام عليهم الرضوان.

الناس يؤمنون بأن الأمراض ضارة ويصدقون بذلك، ولذلك يسارعون عملياً إلى الابتعاد عنها وإلى العلاج منها إنْ أصابتهم.. وهم يؤمنون ويصدقون بأن النار حارقة ولهذا يبتعدون عملياً عنها.. الناس يستعدون لفصل الصيف استعداداً خاصاً ويتقون ما فيه من حر شديد، لأنهم يؤمنون بالصيف ويصدقون به، ولهذا يُتبعون هذا الإيمان والتصديق استعداداً وأعمالاً واحتياطات.. وهم بالمقابل لهم استعداد خاص لفصل الشتاء،

يتقون به برده وأمطاره وثلوجه وزمهريره.. لأنهم يؤمنون به، ويُتبعون هذا الإيمان عملاً واستعداداً..

فلماذا يفعلون هذا في هذه الأمور وأشباهها؟ لماذا إيمانهم بالله ورسوله ودينه لا يعدو دائرة التصديق النظري فقط؟

لماذا يزعمون الإيمان بالله ولا يعرفونه حق معرفته؟ ولا يقدرونه حق قدره؟ ولا يطيعونه حق طاعته؟ ولا يتقونه حق تقاته؟ ويتجرأون على عصيانه ومخالفة أمره وارتكاب ما نهى عنه؟.

لماذا يزعمون الإيمان برسول الله ﷺ ولا يطبقون سنته؟ ولا يقتدون به؟ ولا يهتدون بهديه؟ لماذا يزعمون الإيمان بالقرآن والإسلام ولا يكونون جنوداً له؟ ملتزمين به؟ داعين إليه؟ ناصرين له؟ مجاهدين في سبيله؟ محبين لأهله مبغضين لأعدائه؟.

لماذا يزعمون الإيمان بعذاب النار ولا يتقونها؟ ولا يتجافون عن كل ما يوصل إليها؟ والإيمان بنعيم الجنة ولا يطلبونها ولا يسلكون كل طريق يوصل إليها؟

ولماذا يزعمون الإيمان بالقدر ولا يستسلمون لله حق الاستسلام؟ ولا يتوكلون عليه حق التوكل؟ ولا يرضون بما قدره تمام الرضى؟ ولا يطمئنون إليه غاية الاطمئنان؟.

إن الإيمان الذي يريده الله هو الإيمان الحي الفاعل، هو الإيمان المؤثر النامي، هو الإيمان القائد الموجه.. الإيمان الذي ينفع صاحبه هو الإيمان الذي يُغرس في قلبه فينمو ويزدهر وينير ويضيء، ويزين هذا القلب بزينته ويملؤه في كل جوانبه وزواياه، الإيمان الذي يمد أغصانه وفروعه على كيان هذا المؤمن ووجوده، ويلقي ظلاله على حياته وواقعه، ويعطي ثماره له في ليله ونهاره..

الإيمان الذي عاشه المؤمنون الصادقون العاملون من الأنبياء والأولياء الصالحين هو الذي تنتج عنه الأعمال، ويضبط به السلوك، ويصلح به الواقع، وتستقيم به الحياة..

الإيمان المعتبر هو الذي يبعث على الحركة والهمة، والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة، والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة، والثبات واليقين..

يقول الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله مفرقاً بين إيمان خامل وإيمان عامل، إيمان المسلم القاعد وإيمان المسلم الداعية، تحت عنوان «إيمانان»: «والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان بهذا المبدأ، أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم، لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه.. على أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين.. ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين: أن نؤمن بالفكرة إيماناً يخيل للناس حين نتحدث إليهم عنها أنها ستحملنا على نسف الجبال وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب حتى ننتصر بها أو تنتصر بنا، حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع، نسي كلٌ إيمانَه وغفل عن فكرته، فهو لا يفكر في العمل لها، ولا يحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد في سبيلها.. بل إنه قد يبالغ في هذه الغفلة وهذا النسيان، حتى يعمل على ضدها وهو يشعر أو لا يشعر.. أوَلستَ تضحك عجباً حين ترى رجلاً من رجال الفكر والعمل والثقافة في ساعتين اثنتين متجاورتين من ساعات النهار: ملحداً مع الملحدين، وعابداً مع العابدين» [مجموعة رسائل الشهيد حسن البنا: ١٤ ــ ١٥].

علينا أن نعيد النظر في إيماننا، وأن تكون نظرتنا محكومة بعرض القرآن للإيمان وتقريره له، حتى يتحول هذا الإيمان من مجرد التصديق إلى العمل والالتزام والتنفيذ، أن تدب فيه الحياة والقوة والحيوية والحركة والجهاد..

إن القرآن لا يعتبر الإيمان المجرد حبيس دائرة الذهن والتصور، إن الإيمان القرآني هو تصديق يتبعه عمل، وإقرار يتبعه التزام، واعتقاد يتبعه خضوع..

قال تعالى: ﴿ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: ١٤ ـ ١٥]، الإيمان في هذه الآيات تصديق واطمئنان والتزام وجهاد..

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]. والإيمان هنا تصديق وذكر لله وتوكل عليه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. الإيمان هو أعمال وعبادات قلبية ولسانية وبدنية..

وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة العصر].

والإيمان هنا تصديق وعمل، وجهاد ودعوة، والتزام وحركة، وتواصٍ بالحق وثبات عليه، وتواصٍ بالصبر وحث عليه..

يقول الإمام الشهيد سيد قطب عن هذا الإيمان: «والعمل الصالح هو

الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب..

فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح.. هذا هو الإيمان الإسلامي.. لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها، فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً، وإلاَّ فهو غير موجود.

ومن هنا قيمة الإيمان.. إنه حركة وعمل وبناء وتعمير.. يتجه إلى الله.. إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير.. وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة كبرى في صميم الحياة» [الظلال: ٣٩٦٦ ـ ٣٩٦٧].

ويقول في تفسير آيات الحجرات: «فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لا بد من دافع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، في واقع الحياة وفي دنيا الناس.. يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة.. ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه، والصورة الواقعية من حوله؛ لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة.. ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، فهو انطلاق ذاتي من

نفس المؤمن، يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس. والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف.. فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله، حتى تنتهي هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية..

أولئك هم الصادقون.. الصادقون في عقيدتهم، الصادقون حين يقولون: إنهم مؤمنون. فإذا لم تتحق تلك المشاعر في القلب، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة فالإيمان لا يتحقق، والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون..» [الظلال: ٦/ ٣٣٤٩ ـ ٣٣٥٠].

ويطالبنا سيد قطب أن ننظر إلى الإيمان بمنظار قرآني أصيل، وأن نتعامل معه بجدية بارزة، وأن نوجد حقيقته في واقعنا وحياتنا بصورة مرضية مقبولة: «وإن حقيقة الإيمان يجب أن ينظر إليها بالجد الواجب، فلا تتميع حتى تصبح كلمة يقولها لسان، ومن ورائها واقع يشهد شهادة ظاهرة بعكس ما يقوله اللسان! إن التحرج ليس معناه التميع! والشعور بجدية الحقيقة الإيمانية أوجب، والتحرج في تصورها ألزم.. وبخاصة في قلوب العصبة المؤمنة التي تحاول إعادة إنشاء هذا الدين في دنيا الواقع..» [الظلال: ٣/ ١٤٧٨].

فإلى هذا الإيمان الإيجابي الواقعي الحي ندعو المسلمين، وإلى ضرورة تحقيقه في عالمهم الخارجي وسلوكهم اليومي ووجودهم الحياتي نطالبهم ونحثهم.. عندها يعرفون ويدركون ويعيشون الإيمان القرآني الإسلامي، ويكونون مؤمنين عاملين ربانيين، ينالون رضوان الله ويدخلون جنته، ويبلغون فيها أسمى المنازل وأرفع الدرجات.

أركـان الإيـمـان

للإيمان أركان لا يمكن أن يوجد بدونها، فلا بد من الإيمان بها كلها، وإنكارُ ركن فيها يعني إلغاء للإيمان. . وذلك لأن الإيمان لا يقبل التجزئة ولا المفاوضة ولا المساومة. الإيمان الذي يريده الله لا بدَّ من تحققه كاملاً وبأركانه التي وضحها القرآن الكريم ورسول الله ﷺ.

هذه الأركان حددها وقررها الله سبحانه، إنه هو الخالق الذي يعلم من خلق، وهو الذي يوجد الإيمان ويقرره ويقذفه في القلوب ويحببه إليها ويزينه فيها. . ولذلك هو الذي يعلم ما يوجد الإيمان وما يعدمه ويزيله، فلذلك حدد من الأركان ما هو ضروري له، وطلب من المؤمنين الإيمان بها ليتحقق لهم الإيمان. .

إن الوصف العام الجامع الذي ينطبق على تلك الأركان، ويسري فيها هي أنها كلها من عالم الغيب، وأن الإيمان بها هو إيمان بالغيب. إن الإيمان بالغيب هو السمة البارزة في تلك الأركان؛ ولذلك كانت الصفة الأولى من صفات المؤمنين المتقين أنهم يؤمنون بالغيب ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٢ ــ ٣].

هذه الأركان لا مجال للعقل البشري العاجز القاصر أن يخوض فيها، ولا أن يحشر نفسه في قبول أو رفض ما يتفق مع هواه ومزاجه منها. . إن

المزاجية مرفوضة في الإيمان بالغيب وإثبات عوالمه وتحديد أحداثه.. إن العقل لم يجهزه خالقه ــ سبحانه ــ بما يعينه على الخوض في عالم الغيب، لأن هذا لا يتفق مع وظيفته في الحياة الدنيا.. إن العقل البشري والكيان البشري والحواس البشرية زودها الله بما يحقق لها الخلافة والرسالة والوظيفة في الحياة الدنيا.. أما عالَم الغيب فإنها لم تجهز بالأدوات الكفيلة للخوض فيه.. فإذا خاضت فيه ضلت وضاعت وتمزقت وتحطمت، وخرجت بنتائج خاطئة باطلة مرفوضة.. إن الله قد منَّ على الإنسان فأراحه من الخوض في عالم الغيب.. وتولى الله ــ سبحانه وتعالى ــ بواسطة كتبه ورسله إخبار الإنسان بطرف من هذا العالم وربط عقله وقلبه وبصره وحياته به.. وطالبه بالإيمان بهذا الطرف الذي أخبره عنه، ونهاه عن إنكار شيء منه بحجة أنه لم يخضع للمقاييس العقلية والمقدمات التجريبية..

إن إخضاع عالم الغيب وأكوانه وأشخاصه وأحداثه للتجارب العملية، وإدخاله المعامل والمختبرات العلمية المادية ضلال وخطر وخطأ ومغالطة مكشوفة.. وإن إنكار عالم الغيب تبعاً لذلك هو الجهل والخطأ والحمق والسذاجة التي لا يتصف بها عالم يحترم عقله وعلمه..

دور العقل في عالم الغيب ليس في الخوض فيه وتحديد عوالمه ــ إذن ــ وإنما دور العقل ــ باستخدام الحواس ومنافذ المعرفة الإنسانية ــ إثبات عالَمين: عالَم الغيب، وعالَم الشهادة والإتيان بالأدلة العلمية اليقينية عليهما ــ والعقل المؤمن قادر بعلمية ومنهجية وموضوعية على ذلك ــ فإذا ما أقر بهذه الحقيقة العلمية تأتي الخطوة الثانية: وهي إقراره بالعجز عن الخوض في عالم الغيب وعدم تبديد طاقته في ذلك وتوفيرها لعالم الشهادة.. ثم يخرج بالنتيجة العلمية الإيمانية وهي تَلَقِّي عالم الغيب وما

فيه عن خالقه سبحانه، بتسليم وإيمان وثقة ويقين.. وصَدق الله القائل في صفات المؤمنين «الذين يؤمنون بالغيب».

قلنا إن الصفة العامة التي تجمع أركان الإيمان كلها أنها من عالم الغيب، وأن الإيمان بها هو الإيمان بالغيب.. والآن نبين هذه الأركان كما حددتها النصوص. ثم نبين توفر الغيبية فيها وأهميتها باعتبارها أركاناً للإيمان..

وردت آيات تعرض مجموعة من أركان الإيمان منها:

قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقد عرضت هذه الآية أربعة من أركان الإيمان..

وقوله تعالى: ﴿ ۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الآية عرضت خمسة من أركان الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ ﴾ [النساء: ١٣٦].

بقي ركن سادس من أركان الإيمان لم يرد في القرآن مجموعاً مع أركان الإيمان.. ولكنه ورد مستقلاً، أثناء تقرير الحقيقة الإيمانية القرآنية الجازمة: أن قدر الله وراء كل حادث في الكون، وأن أي أمر أو شيء لا يكون إلاّ بإذن الله ومشيئته وقدره.

أشارت آيات إلى هذه الحقيقة، ونستطيع أن نجعلها دليلاً على الإيمان بالقدر.

منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٧].

والدليل على أن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان هو حديث رسول الله ﷺ.. وذلك عندما أجاب رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.. روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ دخل علينا رجل.. إلى قوله في سؤال الرجل للرسول ﷺ: «فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره..».

الغيب متوفر في كل ركن من هذه الأركان..

فالله سبحانه وتعالى غيب لا نراه بعيوننا في الدنيا، ولا تدركه أبصارنا، وهو ليس كمثله شيء؛ ولذلك نحن نؤمن به سبحانه من باب الإيمان بالغيب.

والملائكة الأبرار الذين لهم عالمهم الخاص، هم كذلك غيب، لأننا لا نتعامل معهم على أساس عالم الشهادة ونواميسه، ولذلك نثبت لهم ما ورد في النصوص بشأنهم.

وكتب الله ورسالاته غيب لأن الله صاحب الكتاب والرسالة ـ وهو غيب ـ وجبريل وهو حامل الرسالة إلى البشر وهو كذلك غيب.

ورسل الله الإيمان بهم من باب الإيمان بالغيب. فهم وإنْ كانوا حاضرين مشاهدين من قومهم الذين يعيشون معهم، ولكنهم بالنسبة لنا

غيب من غيب الماضي نثبت وجودهم وإنْ لم نشاهدهم. ومن زاوية أخرى لا يرادون لذواتهم، ولا يؤمَن بهم لأشخاصهم، وإنما لرسالاتهم التي يحملونها، ودينهم الذي ينشرونه، وتصديقهم في نبوتهم ورسالتهم هو من الإيمان بالغيب، لأن تكليفهم من قبل الله وإيصال الرسالة إلى كل منهم هو من عالم الغيب.

واليوم الآخر وما فيه من مقدمات قبل الجنة والنار، والجنة وألوان نعيمها، والنار وأصناف عذابها كل هذا غيب عن عيوننا وحواسنا وكياننا في هذه الدنيا.

وقدر الله خيره وشره غيب وإنْ كان يصيبنا ونحن في عالم الشهادة والواقع، فماذا يحصل لكل منا بعد لحظة؟ وماذا يحصل للكون ومن فيه بعد لحظة؟ كل هذا غيب، والإيمان به من باب الإيمان بالغيب..

ولذلك كان الإيمان بالغيب هو أبرز صفات المؤمنين، التي تفرق الإنسان المؤمن ذا العقل المؤمن والقلب السليم عن عالم البهيمة.. إن الحيوانات لا تكاد تتعامل إلاَّ مع المحسوس الذي تدركه بحواسها، وإن الماديين الجاهليين المنكرين لعالم الغيب، والذين لا يؤمنون إلاَّ بالمحسوسات والمشاهدات لا يفترقون كثيراً عن هذه البهائم والحيوانات.. أما المؤمن فإنه يتجاوز الواقع ويطلق لروحه وقلبه وعقله ميدانه الإيماني الفسيح فيثبت عالم الغيب ويؤمن به..

وإن المؤمن عندما يؤمن بأركان الإيمان ويثبت عالم الغيب إنما يتمتع بعقلية علمية إيمانية لأن العقلية الإسلامية عقلية علمية غيبية.. أما العقلية الجاهلية المنكرة للغيب فهي عقلية جهلية بهذا الإنكار.. انظر تفسير قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتِحُ الغيب﴾ [في الظلال: ٢/ ١١١١ ـ ١١٢١].

وأركان الإيمان الستة ترجع في حقيقتها إلى اثنين هما: الإيمان بالله، واليوم الآخر.. لأن الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر تدخل ضمن الإيمان بالله وتعتبر من لوازمه ومقتضياته..

وإذا أردنا إيجازاً أكثر، ودمجاً لأركان الإيمان في ركن واحد منها نقول: إنه الإيمان بالله سبحانه؛ لأن الإيمان بالله هو أساس الإيمان والإسلام..

إن الإيمان بالله «هو أهم الأصول الاعتقادية والعملية، وعليه مدار الإسلام وهو لب القرآن، ولا نبالغ إذا قلنا إن القرآن كله حديث عن الإيمان.. لأن القرآن إما حديث مباشر عن الله.. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له.. وإما إخبار عن أهل الإيمان ومصيرهم.. وإما إخبار عن أعداء الله ومصيرهم..

فالقرآن كله حديث عن الإيمان بالله، يوضح هذا أننا نجد أن ذكر الله قد تكرر في القرآن باسم من أسمائه أو صفة من صفاته (١٠٠٦٢) مرة، أي في الصفحة الواحدة قرابة عشرين مرة في المتوسط..»،

(العقيدة في الله لعمر الأشقر: ٥٤ ــ ٥٥ باختصار).

الإيمان بالله ــ كما يريد الله ــ لا يتم ولا يتحقق كاملاً بمجرد الاعتقاد بوجود الله والتصديق بوحدانيته..

الإيمان بالله يعني هذا، أن تصدق بوجود الله ووحدانيته، كما يعني أن تؤمن بأسماء الله وصفاته التي أخبرنا سبحانه عنها، وأن تؤمن بتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ــ كما تؤمن بتوحيد الحاكمية، وإن توحيد الحاكمية من مقتضيات الإيمان بالله، فمن آمن بالله إلهاً ورباً وأثبت له أسماءه وصفاته ثم لم يفرده سبحانه بالحكم والتشريع والسلطان والأمر

والنهي فإنه لم يؤمن بالله حق الإيمان.. كم من الناس في زماننا يثبتون لله توحيد الألوهية والربوبية ويشركون معه غيره في الحاكمية ويزعمون أنهم مؤمنون.

يقول الله في توحيد الحاكمية وأصالته في الإيمان وارتباطه بالإيمان بالله إلهاً ورباً وحاكماً.. ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ويقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠].

والإيمان بالله يعني أيضاً أن يشارك الكيان الإنساني كله قلب المؤمن لذة وتذوق وحلاوة هذا الإيمان، لا يكفي أن يؤمن بالله بقلبه أو ذهنه، لا بدَّ أن يؤمن بالله سمعه وبصره وجوارحه وعقله وتفكيره وخياله ومشاعره، لا بدَّ أن يؤمن بالله في لحظات ليله ونهاره، في غدوِّه ورواحه ووظيفته وعمله، وصلاته وارتباطاته، وخلوته وجلوته، ومعنى هذا لا بدَّ أن يراقب الله في كل هذا، وأن يعيش عملياً معاني أسماء الله وصفاته، وأن تنعكس على حياته وتصرفاته وارتباطاته آثار هذا الإيمان وهذا التوحيد وهذه المعرفة..

الإيمان بالله يعني أن يؤمن بأفعال الله وآياته في الحياة، وأن يثبت إرادة الله وقدره ومشيئته في كل أمر أو حدث أو سكون أو حركة في هذه الحياة.. الإيمان يعني ألا يتوجه إلاَّ إلى الله مسبباً وخالقاً ومريداً لكل ما يحدث، وأن يجرد كل المخلوقات من هذه الصفة، إنساً أو جناً أو جمادات أو خيالات.

ونتيجة لكل هذا نقول: إنه لم يؤمن بالله حق الإيمان من عصى الله وغفل عن مراقبته، ومن قَصَّر في تنفيذ ما طلبه الله منه، ومن نسب لغير الله

قوة وتأثيراً، ومن توجه إلى غير الله رجاءَ ضر أو نفع أو مصلحة، ومن أعطى غير الله حق حكم أو تشريع أو هيمنة أو سلطان، ومن والى أعداء الله وحالفهم وناصرهم، ومن حارب أولياء الله ودينه ومنهجه، ومن ركن إلى غير الله وأحبه واطمأن إليه، ومن ذل في حياته لغير الله، ومن اعتز بغير الله، ومن جبن عن مواقف الإيمان والرجولة والجهر بالحق والصدع بالأمر وإنكار المنكر، ومن تقاعس عن المجاهدة والجهد والجهاد، ومن كان ضعيف الهمة، ساقط الإرادة، خوار النفس، مادي التفكير، تجاري النظرة، دنيوي الآمال، أناني الأهداف، مصلحي الارتباطات، نفاقي المواقف.. مشلولاً في الحياة والمجتمع..

لا بدَّ أن نعرف كيف نؤمن بالله، وأن يكون إيماناً حاراً قوياً دافعاً موجهاً، وأن نعيش معاني الإيمان بالله في الحياة، ونلحظ آثاره الإيجابية الفاعلة في النفس والمجتمع والوجود والحياة.. وبغير هذا لا يكون الإيمان بالله عصمة وأماناً ونجاة لنا في الدنيا، ولا يكون سبباً في الإنعام والفضل والدرجات في الجنة يوم القيامة..

والإيمان بالملائكة أن تأخذ ما جاءت به النصوص القرآنية والحديثية الصحيحة عن عالمهم بتصديق ويقين واطمئنان، وألا تضيف على هذه النصوص شيئاً من عندك، لأنها هي وحدها المصدر اليقيني عن عالم الغيب وما فيه..

الإيمان بالملائكة يعني أن تتعرف على أسمائهم ــ الواردة في النصوص ــ وعلى صفاتهم الواردة كذلك، وأن تتعرف على أفعالهم وأعمالهم في هذا الكون، وعلى أفعالهم وأعمالهم في حياة الإنسان. أن تتعرف على صلتهم الحبيبة المأنوسة بك وبالمؤمنين، وعلى مظاهر هذه

الصلة، وما يقومون به من أعمال وحراسات ومراقبة وإحصاء وتسجيل وتثبيت ودعاء وتأييد للمؤمنين..

الإيمان بالملائكة يعني أن يؤمن كيانك كله بهم وليس قلبك فقط، وأن تعيش في حياتك ظلال الإيمان بهم، وهي ظلال حانية رقيقة حبيبة، وأن تعيش آثار هذا الإيمان وهي آثار خيرة فاعلة إيجابية مربية، وأن تقطف من حياتك ثمار هذا الإيمان في تصورك وعملك..

الإيمان بالملائكة يعني أن تأنس بهم وأن تسعد بحراساتهم وأن تطمئن لمعيتهم وأن تحسن صحبتهم وأن تكرم جيرتهم، وأن تتيقظ لمعيتهم ومراقبتهم وتسجيلهم وإحصائهم، وأن تتعرض لدعواتهم واستغفارهم لك وللمؤمنين..

والإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله يعني أن تصدق بوجودها وإنزالها على السابقين، وأن تعتبرها من مظاهر رحمة الله بالناس، وتقديرك لعظمته وقدرته، وأن تجعلها من لوازم توحيد الحاكمية والربوبية، فالله يربي خلقه بها ويقصر الحكم والتشريع عليها.. وأن تعتبر أن كل دين منها كان منهج حياة لمن نزل إليهم، وأنه صالح لحياتهم ووجودهم.

الإيمان بالكتب يعني أن تؤمن بأن القرآن الكريم هو خاتمة هذه الكتب، وأن الله تعهد بحفظه، وأنه سيبقى كتاب البشرية الخالد ونورها الهادي ودستورها العادل وقائدها الرائد إلى قيام الساعة.. الإيمان بالكتب يعني الإيمان بأن القرآن صالح لكل زمان ومكان، وأنه وحده مصدر الحكم والتشريع والتوجيه.. الإيمان به يعني الإقبال على تلاوته وتدبره وتفسيره وتطبيقه وتنفيذه، ودعوة الناس إليه، والتربية عليه، والحياة والحركة من خلاله..

والإيمان بالرسل يعني أن تؤمن بمن قصهم الله علينا في القرآن وأخبرنا بأسمائهم، وألا تخرج واحداً منهم من بين الأنبياء، وأن تؤمن بأن لله رسلاً آخرين لم يخبرنا عنهم، وأن كل أمة بعث الله لها رسولاً.. وأن الرسالة من مظاهر رحمة الله بالناس.

وأن تؤمن بأن سيدنا محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه رحمة الله للعالمين، وأن رسالته للناس كافةً حتى قيام الساعة.

الإيمان بالرسل يعني أن تثبت لهم الصفات الحسنة الجميلة، وأن تنزههم عن الرذائل والقبائح والمعاصي، أن تثبت لهم العصمة والصدق والأمانة والتبليغ والفطنة، وأن تقبل على قصصهم الوارد في القرآن والسنَّة فتقتدي بهم من خلاله، وتستخرج منه دروساً في الدعوة والعقيدة والحركة والعمل والجهاد..

وأن تقف طويلاً أمام شخصية وسيرة رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام وأن تقتدي به في سيرته وتطبق ما ورد عنه في سنته، وأن تملأ قلبك وحياتك وكيانك محبة للرسول عليه السلام وتوقيراً واقتداءً وطاعةً وتنفيذاً وعملاً..

والإيمان باليوم الآخر يعني التصديق بما ورد في الكتاب والسنَّة عن عوالم هذا اليوم وأحداثه وتفصيلاته.. الإيمان بأشراط الساعة ونفخات الصور، الإيمان بالبعث والحشر والعرض والحساب، والميزان والشفاعة والصراط والحوض.. الإيمان بالجنة ودرجاتها وألوان نعيمها الحسي المادي والمعنوي النفسي، وحياة المؤمن فيها، وما ورد من ألوان طعامهم وشرابهم وأثاثهم ولباسهم وغرفهم وجناتهم وزوجاتهم ورضاهم وسعادتهم وتمتعهم بالنظر إلى وجه ربهم الكريم سبحانه.. والإيمان بالنار ودركاتها

وألوان عذابها الحسي والمعنوي، وعذاب أهلها وما ورد من صوره المرعبة المخيفة في طعامهم وشرابهم وغصصهم وصياحهم وبكائهم وتبكيتهم وتقريعهم، وتلاومهم وتلاعنهم وندمهم وحسرتهم..

الإيمان بما سبق لا يعني الاطلاع عليه ومعرفته معرفة نظرية ذهنية عقلية، فهذه خطوة متقدمة ومرحلة أولى لا بدَّ أن تتبعها مرحلة أخرى، هي أن يؤمن بذلك كل الكيان الإنساني عند المؤمن: عقلاً وقلباً، وتصوراً وفكراً، وضميراً ووجداناً، ومشاعر وأحاسيس، حواساً وجوارح..

الإيمان باليوم الآخر يعني أن يسعى المؤمن في الدنيا ونظره إلى اليوم الآخر، ألا ينسى هذا اليوم في لحظة من لحظات حياته، في ليله ونهاره، وعمله ووظيفته، وارتباطه وصلاته، وكلامه وعباراته، وحركته وجهده وجهاده، ومواقفه واختياراته وولاءاته..

الإيمان باليوم الآخر يعني أن يعيشه هذا المؤمن وأن يقطف ثماره في حياته: إيماناً وأمناً، وطمأنينة وعزاً، وكرامة وإباء، وطاعة وتقوى، وتحرجاً وحذراً، وخوفاً ورجاءً.. أن يعيش هذه الآثار في واقعه وحياته وكيانه..

والإيمان بقدر الله يعني أن يثبت لله وحده الفاعلية والتأثير، والإرادة النافذة الطليقة في هذا الوجود، أن يجرد البشر مهما كانت مراكزهم وقوتهم من كل هذا، لأنهم عاجزون عن فعل شيء منه، وإن الله شاء أن يكونوا أسباباً للحوادث والأشياء وليسوا مسببات قادرة، وأن يكونوا ستاراً لقدر الله النافذ، وليسوا قادرين ولا مشاركين فيه لله سبحانه.

الإيمان بقدر الله يعني أن يجعل الضر والنفع بيد الله وحده، وكذلك الخير والشر، والخفض والرفع، والقبض والبسط، والغنى والفقر، والمنح

والمنع، والوجود والعدم، والحياة والموت، والرزق والأجل، والجهد والعمل.. فإذا مَنَح أحداً من البشر العاجزين شيئاً من ذلك فإنه لم يؤمن بقدر الله..

ونسبة ما سبق إلى الله وقدرته وإرادته ومشيئته ليست من باب المعرفة العقلية الذهنية، والتصديق النظري البارد الذي يخالفه الواقع.. نسبة ما سبق إلى الله يعني أن تكون حياة المؤمن العملية وسلوكه الواقعي، وارتباطاته الخارجية، وصلاته بالناس وقواهم ومراكزهم على أساس هذه المعاني.. إنه لم يؤمن بالقدر ولم يقصره على إرادة الله ومشيئته من يثبت هذه لله نظرياً ــ وقد يعطي فيه محاضرة قيمة أو يكتب كتاباً كبيراً ــ ثم يخالفه في واقعه وسلوكه وعمله، ولسان حاله يجعل أحداً من البشر قادراً على الإيذاء والإسعاد والضر والنفع والرزق والقطع والإنعام والحرمان.

ثم الإيمان بالقدر يعني أن يرضى بقدر الله ويطمئن إليه، وإلى رحمة الله به وإرادته الخير به.. ألا يتسخط على الأقدار الربانية، وألا يشكو الله سبحانه إلى خلقه، وألا يضجر أو يقلق أو يضطرب.. بل إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له..

• • •

من صفات أهل الإيمان

عرض القرآن كثيراً من صفات أهل الإيمان، وتحدثت آياته الكريمة عن أهمها وأشهرها ودعت المؤمنين إلى أن يتصفوا بها حتى يعيشوا حياة إيمانية مباركة سعيدة، وحتى ينالوا جنة الله وثوابه ونعيمه..

وفي الحقيقة إن القرآن قد عرض لنا صفات ثلاث طوائف من البشر. أولها صفات المؤمنين لنتخلَّقَ بها، وثانيها صفات الكافرين لنحذرها ونتجنبها، وثالثها صفات المنافقين لنبتعد عنها ونكرهها..

والمؤمن البصير الحريص على أن يكون مع ربه، يستخرج من القرآن والسنَّة صفات هذه الطوائف.. إننا ندعو كل مؤمن أن يضع أمامه ثلاث قوائم: الأولى يسجل فيها صفات المؤمنين التي أخذها من القرآن والحديث، ويعرض نفسه عليها كل يوم ليرى كم حصَّل منها، وعاش حياته من خلالها، ليسأل الله المزيد من التثبيت والتوفيق، ثم يرى ماذا ترك منها، وماذا ينقصه منها، ويعتقد أن إيمانه ينقص بمقدار ما ترك منها، ولهذا يسعى جاهداً بهمة وعزيمة ليتحلى بها، ويحققها في نفسه وكيانه وحياته..

ثم يضع أمامه قائمتين أخريين يسجل في إحداهما صفات الكافرين، وفي الثانية صفات المنافقين، ويستخرجهما من الكتاب والسنَّة، ويعرض نفسه عليهما باستمرار وينظر في نفسه نظرة فاحصة على بصيرة نافذة، ويطرح عليها أسئلة تربوية في لحظات الصفاء والإشراق، ويكون صادقاً في

طرح الأسئلة وصادقاً في الإجابة عليها.. لينظر فيما اتصف به من صفات المنافقين ومن صفات الكافرين، فيبذل جهده في التخلص منها والتبري عنها، ولا يرضى أن يتصف بواحدة منها لأنه يعلم أن اتصافه بواحدة من صفات المنافقين أو الكافرين يبعده عن الله ويقربه من الشيطان ويضعف إيمانه وينقصه، ويعرضه للشقاء في الدنيا وعذاب النار يوم القيامة..

المؤمن حذر بصير محاسب مراقب، يحرص على أن يبقى قلبه وتبقى نفسه وحياته في ظلال الإيمان، والأنس بالإيمان، واتصاف بصفات أهل الإيمان. ويحذر أن يقع فيما يقربه من الشيطان ويحجبه عن الرحمن، إن الأمر يحتاج إلى يقظة ومحاسبة ومجاهدة وتربية مستمرة..

صفات المؤمنين كثيرة في القرآن، توزعت سوراً عديدة، وتفاوتت هذه الصفات قلة وكثرة وتفاوتت الآيات التي تعرضها قصراً وطولاً، لكن تأكيد القرآن على صفات المؤمنين واستمرار عرضها في سور مكية وسور مدنية، يدل على أهمية اتصاف المؤمنين بها وتحققها فيهم، وأهمية التذكير المستمر بها حتى لا تُنسى ولا تُهمل، تذكير المؤمنين الذين حققوها حتى يستمروا في الاتصاف بها، وأن يكونوا انعكاساً لها وترجمة حية لها. وهذه دلالة تربوية هادفة تنفع أهل التربية والتوجيه، وتريهم كيفية غرس الصفات الإيجابية والفضائل الأخلاقية في نفوس وقلوب الناس، واستمرار مراقبتها ومتابعتها.

وفيما يلي نقدم طائفة من الآيات التي تضمنت مجموعة من الصفات اللازمة لأهل الإيمان:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١ ــ ٥].

صفات أهل الإيمان في هذه المجموعة ست. وبينها تناسق واتصال وترابط وانسجام: التقوى والإيمان بالغيب وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، والإيمان بالكتب السماوية، واليقين بالآخرة..

إن الذي يجمع بين هذه الصفات هو الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، والتكامل المتناسق للعقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية والشخصية الإسلامية.

يقول الشهيد سيد قطب: «وهناك تساوق وتناسق بين هذه الصفات جميعاً، هو الذي يؤلف منها وحدة متناسقة متكاملة، فالتقوى شعور في الضمير وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتجاهات وأعمال، وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة، وتصل الإنسان بالله في سره وجهره، وتشف معها الروح، فتقل الحجب بينها وبين الكلي الذي يشمل عالمي الغيب والشهادة، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول. ومتى شفت الروح وانزاحت الحجب بين الظاهر والباطن، فإن الإيمان بالغيب عندئذٍ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه. ومع التقوى والإيمان بالغيب عبادة الله في الصورة التي اختارها، وجعلها صلة بين العبد والرب.. ثم السخاء بجزء من الرزق اعترافاً بجميل العطاء، وشعوراً بالإخاء.. ثم سعة الضمير لموكب الإيمان العريق، والشعور بآصرة القربى لكل مؤمن ولكل نبي ولكل رسالة.. ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ولا تأرجح في هذا اليقين.. هذه كانت صورة الجماعة المسلمة التي قامت في المدينة يومذاك مؤلفة من السابقين من المهاجرين والأنصار.» [الظلال ١/ ٤١].

ومن الآيات التي تعرض بعض صفات المؤمنين قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

هذه الآية هي آية البر التي وقف أمامها المفسرون طويلاً، بل إن أحد الكاتبين أفرد لها كتاباً خاصاً ــ هو عباس الجمل في كتابه «آية البر في القرآن الكريم» ــ وقد عرضت لنا هذه الآية طائفة من صفات المؤمنين، واعتبرت توفرها عند المؤمنين دليل الإيمان والصدق والتقوى: إنها الإيمان ــ بمفهومه القرآني ــ وإنفاق المال في سبيل الله على أصناف حددتها الآية. والوفاء بالعهد. والصبر في مواطن القلق والاضطراب. والصدق في الالتزام بتلك الصفات. والتقوى باعتبارها ثمرة لتلك الصفات.

ومنها قوله تعالى عن المؤمنين العابدين لله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦ ــ ١٧].

إنهم يعلنون إيمانهم بالله ويرجون منه المغفرة ويستعيذون به من النار. إنهم يتصفون بالصبر والصدق والقنوت والإنفاق في سبيل الله والاستغفار وقت السحر. خمس صفات متناسقة متماسكة. والملاحظ أنه عرض هذه الصفات بصيغة اسم الفاعل، وهذا يوحي بأمرين:

الأولى: أن هذه الصفات لا تتحقق فيهم إلاّ بالفعل والعمل والسعي

والجهد والحركة والمجاهدة، إنهم يبذلون جهدهم الشاق في التحلي بها والحياة معها، ولا تأتي بمجرد الآمال والأمنيات والمشاعر.

والثانية: أنهم يعتادون هذه الصفات، ويمارسونها باستمرار حتى تكون حالة دائمة لهم لا ينفكون عنها، وسمة واضحة عليهم يُعرفون من خلالها، إنه لا يُتَصَور أن يوجَدوا بدونها، ولا أن يعيشوا حياة سعيدة وهم فاقدون لها. إن اسم الفاعل في لغة العرب يفيد الثبات على الأمر، والاستقرار على الحالة، والبقاء على الشيء والاستمرار عليه..

ومنها هذه الآيات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٦].

ويلفت نظرنا في هذه الطائفة من الآيات أمور منها:

١ ـ تكرار فعل الأمر فيها للمؤمنين أربع مرات: اتقوا الله، اتقوا النار، أطيعوا الله والرسول، سارعوا إلى مغفرة من ربكم.

٢ ـ التعبير بالفعل المضارع المرفوع الذي يخبر عن صفات المؤمنين أربع مرات: تفلحون. تُرحمون. ينفقون. يعلمون. مرتان منهما في صيغة الخطاب للمؤمنين، ومرتان في صيغة الإخبار عن الغائبين.

٣ ـ التعبير عن صفات المؤمنين بصيغة اسم الفاعل أربع مرات أيضاً: المتقين، الكاظمين الغيظ، العافين عن الناس، المحسنين.

٤ ـ الحديث عن المؤمنين في صيغة الفعل الماضي أربع مرات كذلك: فعلوا، ظلموا، ذكروا، استغفروا.

ومنها هذه الآيات:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٥].

إن المؤمنين المتصفين بهذه الصفات هم أولو الألباب وأصحاب العقول، أما غيرهم فلا لب عندهم ولا بصيرة. لقد عرضت هذه الآيات صفاتهم من ثلاثة جوانب:

الأول، هو: ذكرهم لله ذكراً شاملاً بألسنتهم وبكيانهم وقلوبهم وعقولهم ونظرهم، وهذا الذكر مستمر دائم مستغرق لكل حياتهم: قياماً وقعوداً، وعلى جنوبهم. وهذا الذكر يقود إلى التفكر في مخلوقات الله، بل إن من أفراده التفكر في هذه المخلوقات، إذن ذكر وفكر ونظر.

الجانب الثاني: إن هذا الفكر والنظر وهذا الذكر الشامل يقودهم إلى التوجه إلى الله بخالص الدعاء وصالحه، ويطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار لأن هذا هو الخزي وهم ـ أولو الألباب ـ يخشون الخزي والفضيحة يوم القيامة أكثر من خشيتهم لسعة العذاب المادي وشدته، ويسألون الله المغفرة وتكفير السيئات، والموت مع الصالحين والبعث مع الصالحين، الحشر معهم والحساب معهم ودخول الجنة معهم.

الجانب الثالث: إن الله عندما علم صدقهم في الفكر والذكر، وتضرعهم وصدقهم في الدعاء، أخبرهم أنه استجاب لهم، ولكن الاستجابة ليست للجميع، ليست لكل من يذكر الله ولا لكل من يدعو الله، لكنها لقوم مؤمنين لهم صفات مخصوصة: إنهم العاملون للإسلام المتحركون به المجاهدون في سبيله: ﴿ لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. فماذا حققنا من هذه الصفات العملية؟ فلنستح من الدعاء اللفظي والذكر اللساني المجرد من كل عمل وجهاد وصبر.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٥٦ ﴾ [المائدة: ٥٤ ـ ٥٦].

تقدم لنا هذه الآيات بعض صفات أهل الإيمان، وهم حزب الله الغالبون، المرشحون للقضاء على الردة عن الإسلام، والعاملون على تحكيم الإسلام في الواقع وإيجاد المجتمع الإسلامي المنشود والخلافة الإسلامية المباركة.

من صفاتهم: محبة الله لهم ومحبتهم له، والشعور بأخوة الإسلام، والذلة على المؤمنين، والمفاصلة للكافرين والعزة عليهم، والجهاد في سبيل الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاستمرار على هذا، والولاء لله ورسوله، والانتماء إلى حزب الله، والتبري من حزب الشيطان، واليقين بوعد الله والثقة بأنهم المفلحون بإذن الله.

ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ــ ١٥٧].

إن طريق الفلاح هو التحقق عملياً بالإيمان، إنه إيتاء الزكاة والإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام إيماناً حياً قوياً قائداً موجهاً، إيماناً يدفع صاحبه لتأييد الرسول عليه السلام ونصرته واتباعه والاقتداء به والاهتداء بشريعته ورسالته وهي النور الذي أُنزل معه..

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾ [الأنفال: ١ ــ ٤].

إن الآيات تقصر الإيمان على من تحقق بهذه الصفات، وتقصر

المؤمنين على من توفرت فيهم هذه الصفات. وذلك في كلمتي ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾.

ومما له دلالة واضحة أن هذه الآيات نزلت في أثناء الجهاد والقتال، وفي التعقيب على غزوة بدر الكبرى واختلاف الصحابة في أنفالها وغنائمها.. وكأنها تريد أن تقول لنا إن صفات المؤمنين لن توجد كاملة وافرة إلاَّ من خلال الجهاد والعمل والسعي والحركة.. وإنه لا يصلح المؤمنين ولا يجمع بينهم إلاَّ الجهاد، ولا يزيد الإيمان في قلوبهم ويترك آثاره على حياتهم مثل الجهاد..

وكما بدأت سورة الأنفال بعرض مجموعة من صفات المؤمنين، ختمت كذلك بعرض مجموعة أخرى من صفات المؤمنين، ركزت فيها على أهم الصفات الجهادية لهم وهي: الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، ونصرة الله ورسوله والمؤمنين، والهجرة إلى الله ورسوله والمؤمنين، واعتبار من قاموا بهذه الخصال هم المؤمنون حقاً، الذين يستحقون النصرة، والحرب والجهاد من أجلهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٢ ـ ٧٤].

ومن الجدير بالملاحظة أن المجموعة الأولى من صفات المؤمنين في الأنفال ختمت بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ

وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ وأن المجموعة الثانية كذلك ختمت بنفس الخاتمة ــ بحـذف عبـارة واحـدة منهـا ــ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾. .

ولو حاولنا أن نسجل حكمة حذف «لهم درجات عند ربهم» من المجموعة الثانية فإننا نقول: المجموعة الأولى نزلت على الصحابة بعدما اختلفوا في الأنفال التي أخذوها في معركة بدر، اختلفوا في كيفية توزيعها عليهم ــ ولم يكن قد نزل حكم الله في ذلك ــ وأوشك هذا الاختلاف أن يضعف صلتهم الأخوية ورابطتهم الايمانية. . ولكن هذا الاختلاف لم يكن لأجل المال والرزق والمادة ــ فهم زاهدون في ذلك ــ ولكنه كان من أجل غاية نبيلة وهدف سام، يريدونه باعتباره مظهراً عملياً لمعنى إيماني عظيم، وترجمة واقعية لخلق إسلامي حميد، إنه الاقدام والجهاد والاستبسال في القتال والجرأة والشجاعة والبسالة، وكانوا يعتبرون حصول المؤمنين منهم على الأنفال دليلاً عملياً على توفر هذه المعاني فيه أثناء المعركة، فتكون الأنفال بمثابة أوسمة رفيعة «ونياشين» عسكرية وجوائز تقديرية. . وبمعنى آخر اعتبروا الحصول على الأنفال دليلاً عملياً على سمو درجاتهم عند الله، ورفعة منازلهم عند الله. . فقررت المجموعة الأولى أن المؤمنين المتصفين بتلك الصفات لهم درجات عند ربهم ولو لم يحصلوا على الأنفال.

أما المجموعة الثانية التي حذفت منها عبارة ﴿ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ فإنها تتحدث عن مجموعتين من المؤمنين السابقين: المهاجرين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والأنصار الذين آووا ونصروا. وكل واحدة من المجموعتين تملك شهادات عملية، ومؤهلات عملية، وتراجم واقعية

عملية على حصولها بما تملك ــ على درجات عند ربها.. المهاجرون يحملون شهادة الهجرة والأنصار يحملون شهادة النصرة.. ولأنهم يملكون الدليل المادي على حصولهم على الدرجات الرفيعة عند ربهم حذفت العبارة من السياق.. والله تعالى أعلم..

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

إنها تعرض صفات الأولياء، ولوازم الولاية بين المؤمنين والمؤمنات التي لن تتحقق إلَّا بها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله.. وهم بهذه الصفات وهذه الولاية ينالون رحمة الله ويعيشون في أفيائها، ورحمة الله تعوضهم عن ما دفعوه من ثمن باهظ نتيجة لالتزامهم بالولاية، ودفعهم راضين لتكاليفها..

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١ ــ ١١٢].

البيعة مع الله ليست كلاماً نظرياً، وبيع المؤمن نفسه وماله لله، وانتظاره من الله ثمن هذا وهو الجنة، لن يكون كلاماً نظرياً، ولا بد من ترجمة عملية لذلك، ولا بد من صفات واقعية حية لمن فعل ذلك. إن الإسلام صفقة بين متبايعين يبذل فيها البائع السلعة ــ وهي النفس والمال ــ ويمنح فيها المشتري الثمن ــ وهو الجنة ــ ويحدد فيها المشتري طريق تسليم المبيع وكيفيته ــ القتال في سبيل الله ــ ويَعِد صادقاً بإعطاء الثمن عند

تسليم المبيع ـ ومن أوفى بعهده من الله؟ ـ ويبشر البائع بربحه الجزيل الجميل من هذه الصفقة، ويدله على صفات أساسية إيمانية تساعده على تسليم المبيع والسير في طريق التسليم. إنها صفات ثمانية في الآية الثانية.. ويأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يبشر المؤمنين بهذا ليكونوا من البائعين الصادقين. ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

ومنها هذه الآيات: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

صنفت لنا هذه الآيات الناس إلى صنفين لا ثالث لهما: مؤمنون وكافرون. المؤمنون عالمون مبصرون أولو الألباب.. والكافرون جاهلون عمي بدون ألباب.. بهذا المنظار يجب أن ننظر في الناس ونصنفهم ونتعامل معهم. المؤمنون العالمون المبصرون الأذكياء العاقلون هم الذين يوفون بعهد الله بكل ألوانه ونماذجه، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخافون ربهم ويحسبون الحساب ليوم الحساب، وقد اتصفوا بالصبر والصلاة والصدقة وحسن الخلق..

ونظراً لأهمية صفات أهل الإيمان، ووجوب أن يتصف بها المؤمنون، ولكرامة هؤلاء المؤمنين عند ربهم ورضاه عنهم، فقد خصص القرآن الكريم سورة للحديث عن المؤمنين، عرض فيها طائفة من صفاتهم، وحملت اسمهم. إنها سورة «المؤمنين».

من صفات المؤمنين فيها ما ورد في هذه الآيات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ

هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾
ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

إنه لا نجاح ولا فلاح ولا نجاة في الدنيا ويوم القيامة إلاَّ لمن اتصف بهذه الصفات السامية لأهل الإيمان، وإنها كلها صفات متناسقة متصلة متكاملة. كل واحدة تسلم للتي تليها وتدل عليها وتوجدها، إنها سلاسل مباركة: إن الحسنات لها سلاسل، والحسنة تنتج حسنة وحسنات، والمؤمن يبحث عن نفسه هل الطاعة عنده تولد الطاعة؟ وهل الصفة الخيرة تأتي بمثلها؟ وهل الحسنة تقود الحسنة؟ إن كان ذلك كذلك فهو من أهل الإيمان المتصفين بصفات الإيمان.

وهذه لوحة أخرى من سورة «المؤمنون» تقدم طائفةً من صفات المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

إن المؤمنين يسارعون في الخيرات، ويسابقون إليها فيَسبقون، ويكونون متفردين متميزين في طليعة الواصلين، إنهم مشفقون من خشية ربهم لأنهم يعلمون مقام الله العظيم، ويشعرون بالتقصير في حقه مهما عبدوه، ويخشون الزلل والعذاب يوم القيامة، وهم يقدمون لله عباداتهم وطاعاتهم وحسناتهم، ويخشون ألا يتقبلها الله منهم.. كما ورد عن هؤلاء أنهم الذين يصلون ويصومون ويذكرون ويتصدقون، ويخشون ألا يُقبل ذلك منهم.. فيعبدون الله في مقامين: مقام الخوف من عذابه ومقام الرجاء في رحمته وجنته.

وفي سورة الفرقان مجموعة أخرى من صفات أهل الإيمان، عرضت في إطار تصنيف لطيف للمؤمنين وصفة محببة إليهم. إنهم «عباد الرحمن» فما هي أبرز صفات عباد الرحمن؟

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦].

وهذه مجموعة أخرى من سورة القصص: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

ومن صفات أهل الإيمان ما ورد في سورة السجدة: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ

جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥ ــ ١٧].

وهذه لوحة من سورة الأحزاب فصلت الحديث عن الجنسين: المؤمنين والمؤمنات، وخصصت المؤمنات بالذكر وإبراز مجموعة من صفاتهن إلى جانب صفات المؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقدمت لنا سورة الشورى قائمة أخرى لصفات المؤمنين: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٦ ــ ٣٩:].

أما في سورة الفتح فإن المؤمنين يقدّمون لنا من خلال هذه الصورة الإيمانية النامية المؤثرة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذه لوحة أخرى لصفات المؤمنين في سورة الحجرات، بمناسبة التفريق بين الإسلام الأوَّلي كمرحلة متقدمة على الإيمان وموصلة إليه،

وبين الإيمان الرباني الحي المقبول عند الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: ١٥].

المؤمنون في سورة الذاريات هم المتقون المحسنون، وقد عُرضوا لنا من خلال صفات التقوى والإحسان: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥ ــ ١٩].

وهذه صفات للمؤمنين بأصنافهم الثلاثة: المهاجرون والأنصار والخلف اللاحقون: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ٨ ــ ١٠].

أما سورة التحريم فقد عرضت لنا مواصفات الزوجة المؤمنة الصالحة، التي لا بد من توافرها فيها: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم: ٥].

وسورة المعارج تقدم لنا المؤمنين من خلال هذه الصفات: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ

هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٣٥].

وها هي صفاتهم في سورة الإنسان: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٧ ـ ٩].

هذه أهم صفات أهل الإيمان كما وردت في القرآن، فهناك صفات قليلة في آية أو بعض آية، لم نعرضها لأننا لم نهدف إلى أن نجمع هذه الصفات كاملة، لكن هدفنا إلى ذكر وإيراد أهمها وأشهرها وأبرزها.. وها نحن نقدمها لأهل الإيمان هدية مباركة ليقبلوا عليها، ومرآة كاشفة يرون أنفسهم من خلالها.. فليُقبلوا عليها وليتحلوا بها، وليوجدوا في أنفسهم ما يفتقدونه منها..

• • •

زيـادة الإيمـان

الإيمان نعمة ربانية عظمى، ومنحة إلّهية حبيبة لطيفة، مرغوبة مطلوبة من قبل من يعيها ويعرف قيمتها ويدرك أهميتها ويتذوق لذتها..

هـذا الإيمـان قـدَّر الله عـز وجـل أن يتـأثـر بـالظـروف والأحـوال والملابسات والأجواء المحيطة به وبصاحبه.. صحيح أنه يرسخ في قلب صاحبه ويثبت، ويبقى قوياً حياً، وصحيح أنه يستعلي على القلع والاجتثاث من قِبل أعدائه..

لكن هذا الإيمان يطلب من صاحبه أن يكون معه وأن يكون له، وأن يعيش حياته به.. يطلب من صاحبه أن يخدمه وأن يساعده.. يطلب منه أن يهيىء له الأجواء المناسبة ليعيش فيها، وأن يعد له البيئة الصالحة لينمو فيها.. وأن يجهز له العوامل والأسباب الكفيلة بحياته وحيويته وفاعليته، وأن يوجد له «الوسط الملائم» ليتقوى فيه ويرسخ ويزداد.. يطلب هذا الإيمان من صاحبه أن يتعاهده باستمرار وأن يلاحظه باستمرار، وأن يحرسه باستمرار.. أن يبعد عنه الأمراض والآفات التي قد تضرُّ به، وأن يبتعد عن الذنوب والمعاصي التي قد تؤذي هذا الإيمان أو تنقصه، وألا يقترب من الكفـر أو الشـرك أو الظلـم أو النفـاق الـذي قـد يقضـي علـى هـذا الإيمـان ويزيله..

إن الإيمان ــ على قوته ومتانته ــ أشبه ما يكون بالشجرة التي تغرس

في الأرض فإذا أراد لها صاحبها حياة وقوة وثمراً وعطاء فلا بد أن يتعاهدها منذ غرسها، وأن يهيىء لها الوسط الملائم والتربة الخصبة، وأن يبعد عنها الشوائب الضارة، وأن يحرسها من المعتدين عليها.. وأن يديم خدمتها حتى تضرب جذورها في أعماق الأرض وتمتد فروعها في السماء.. ثم تُقدمُ لهذا الفلاح الكريم البصير ثمراً طيباً وعطاءً نافعاً.. إنها لا تعطيه إلاَّ بعدما يعطيها، ولا تمنحه إلاَّ بعدما يخدمها، ولا تقدم له زاداً إلاَّ بعدما يقدم لها زادها.. وهذه طبيعة الحياة: خدمة متبادلة وعطاءٌ متبادل..

الإيمان يزيد في قلب وحياة صاحبه، يزيد ويزيد حتى يملأ على صاحبه قلبه ووجوده، ويكون نوراً يضيء له حياته.. ويكون هو قد تمثل الإيمان عملياً في حياته، وتجسد الإيمان به وحل في كيانه: كلامه إيمان، ونظره إيمان، وسمعه إيمان، وذهنه إيمان، قيامه وقعوده إيمان، نومه ويقظته إيمان، حركته وسلوكه إيمان، أنفاسه ودقات قلبه إيمان، خواطره وخيالاته إيمان.. أو قل: إنه هو إيمان.

وقد وردت نصوص في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ تقرر هذه الحقيقة، وتشير إليها، وتدعو المؤمنين إلى ملاحظتها ومعايشها والاهتمام بها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٢ ــ ٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٣ ــ ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح: ٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ . . ﴾ [المدثر: ٣١].

هذه ست آيات من كتاب الله عز وجل تقرر هذه الحقيقة. إن الإيمان يزداد في قلوب أصحابه، وإن هناك عوامل وأسباباً لزيادته. . ولا أدري كيف أجاز مسلمون سابقون لأنفسهم أن يختلفوا في هذه القضية؟ وكيف جاز لبعضهم أن يقول بعدم زيادة الإيمان، وأن يقرر خلاف ما قرر القرآن! إن هؤلاء الذين جانبوا مقررات القرآن حول زيادة الإيمان إنما دخلوا عالَم القرآن بمقررات سابقة، وكانوا متأثرين وهم ينظرون فيه وفي حقائقه بالعقلية الفلسفية المتأثرة بعلم المنطق والكلام، والغريبة على التصور الإسلامي والهدى القرآني. .

إن قضية زيادة الإيمان ونقصانه، والقول بأنه لا يزيد ولا ينقص «من قضايا الفرق وقضايا علم الكلام في فترة الترف العقلي والفراغ من الاهتمامات العملية الجادة، فلا ندخل نحن الآن فيها. .» كما قال الإمام الشهيد سيد قطب [الظلال: ٣/ ١٤٧٥ حاشية].

ومن الأحاديث الدالة على زيادة الإيمان ما رواه الإمام البخاري في صحيحه ـ باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال من كتاب الإيمان ـ عن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيُلقون في نهر الحيا أو الحياة ـ شك مالك (يعني أبو سعيد) ـ فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية..».

وتفاضل أهل الإيمان في الأعمال ناتج عن تفاضلهم في الإيمان، فليسوا جميعاً على مستوى واحد من الإيمان، فمن زاد إيمانه زادت أعماله وحسناته، ومن نقص إيمانه نقصت حسناته ووقع في السيئات، وهذا تضره المعاصي التي فعلها فيعذب في النار، لكنه لا يخلد فيها لما عنده من إيمان..

ومن هذه الأحاديث ما رواه البخاري في باب زيادة الإيمان ونقصانه من كتاب الإيمان ـ عن أنس عن النبـي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إلَه إلاَّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إلَه إلاَّ الله وفي قلبه وزن بُرة من الخير، ويخرج من النار من قال لا إلَه إلاَّ الله وفي قلبه وزن ذرة من خير..».

وفي رواية «من إيمان» مكان «من خير» وهذه الرواية الثانية تبين أن المراد بالخير هنا الإيمان..

وروى البخاري أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من يهود قال له: يا أمير المؤمنين: آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

﴿لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة. قال ابن حجر في الفتح: «فإن قيل: كيف دلت هذه القصة على ترجمة الباب حول زيادة الإيمان ونقصانه؟ أجيب: من جهة أنها بينت أن نزولها كان بعرفة، وكان ذلك في حجة الوداع، التي هي آخر عهد البعثة حين تمت الشريعة وأركانها، والله أعلم، وقد جزم السدي بأنه لم ينزل بعد هذه الآية شيء من الحلال والحرام» [فتح الباري: ١/ ٩٧].

وروى الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان: وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ـ عن طارق بن شهاب قال: أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان. فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة. فقال: قد تُرك ما هنالك. فقال أبو سعيد: أما هذا فقد أدى ما عليه. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان» [مسلم بعناية عبد الباقي: ١/ ٦٩].

قال الإمام النووي في شرحه «أضعف الإيمان: معناه ـ والله أعلم ـ أقله ثمرة».

ودلالة الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه واضحة، فالذي يقوم بالواجب ويغير المنكر باليد أو باللسان إيمانه قوي، ويعيش زيادة الإيمان في قلبه زيادة ناتجة عن أداء الحق وتغيير المنكر. والذي لا يجرؤ على ذلك فلا أقل من أن يغيره بالقلب، يعني أن يكره هذا المنكر بقلبه، وأن يعمل على تغييره الإيجابي الواقعي باللسان أو باليد.. والتغيير بالقلب دليل على أن الإيمان ضعيف، يعني أنه قليل الثمرة، يعني أنه ناقص. هذا

فيمن ينكرون المنكر بقلوبهم ويكرهونه بقلوبهم، فماذا نقول فيمن يزعمون أنهم مؤمنون وأن إيمانهم في ازدياد وهم مقبلون على المعاصي والمنكرات بجوارحهم، أو وهم يحبون هذه المنكرات بقلوبهم ويشتمونها بألسنتهم، يشتهونها بقلوبهم ويستلذونها ويظهرون كرههم لها بألسنتهم.. أَوَلا تتوجه قلوبهم لهذه المنكرات بالإنكار والكره ولو عمت بلاد المسلمين.. ماذا نقول في إيمان هؤلاء؟؟

وروى مسلم في نفس الباب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبـي بعثه الله في أمة قبلي، إلاَّ كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» [مسلم بعناية عبد الباقي: ١/٦٩ ــ ٧٠].

هذا وإن الجهاد بالقلب جهاد، وإن التغيير بالقلب جهاد، والرسول عليه الصلاة والسلام سماه جهاداً، يعني أنه إيجابـي وليس سلبياً كما يظن بعض العجزة والكسالى من مسلمي هذا الزمان، فالرسول عليه الصلاة والسلام اعتبره من خصال التغيير ومن درجاته، والإنكار السلبـي لا يكون كذلك. الإنكار الإيجابـي العملي المؤثر يعني أن يبقى قلبك كارهاً لهذا المنكر وتاركاً لأصحابه مفاصلاً لهم مبتعداً عنهم. يعني أن يبقى قلبك في مناعة دائمة ضد هذا المنكر وأصحابه، وألا يتدسس المنكر أو أصحابه إليه، وأن تبقى في حراسة ويقظة تجاه هذا الأمر، وأن تستعد بكل ما أوتيت من قوى للانتقال من هذه المرحلة الأولى والدنيا في الإنكار والجهاد إلى المراحل التي فوقها، إلى التغيير والجهاد باللسان ثم باليد. هذه مراحل

التغيير للمنكر وخطواته، فمن لم يكن في أول مرحلة منها فأين إيمانه؟؟ وماذا حصَّل من الإيمان؟

وروى الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». «وكان أبو هريرة يلحق معهن: ولا ينتهب نهبة ذات شرف، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن» [مسلم: ١/٧٦] وفي رواية عن مسلم «والتوبة معروضة بعد» [مسلم: ١/٧٧].

وهذا الحديث يدل على نقصان الإيمان، ويشير إلى ضرر الذنوب والمعاصي على الإيمان، وتأثر الإيمان بها..

ونفي الإيمان عن أصحاب هذه الكبائر ليس نفياً لحقيقة الإيمان، بل هو نفي لكماله، كما ترجم الإمام مسلم عنوان الباب، وهذا من عظيم فقهه، ونافذ بصيرته رحمه الله.

قال الإمام النووي في شرح الحديث: «هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي عليه المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله» [شرح النووي: ٢/٤١].

وقال مورداً بعض الأقوال الأخرى في الحديث ـ ولها وجاهتها أيضاً ـ : «وتأول بعض العلماء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلاً له مع علمه بورود الشرع بتحريمه..

وقال الحسن وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري: معناه ينزع منه اسم المدح الذي يسمى به أولياء الله المؤمنين، ويستحق اسم الذم فيقال: سارق وزان وفاجر وفاسق..

وحكي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن معناه: ينزع منه نور الإيمان. وفيه حديث مرفوع.

وقال المهلب: ينزع منه بصيرته في طاعة الله تعالى..» [شرح النووي: ٢/ ٤٢].

وقد قال أهل السنَّة والجماعة بما أشارت إليه هذه الأحاديث ــ ومن قبلها تلك الآيات ــ قالوا بزيادة الإيمان وبنقصانه، وتابعوا في ذلك النصوص، وكانوا علميين ومنهجيين في تفكيرهم ونظراتهم كما كانوا مقتدين سلفيين في آرائهم وأفهامهم رضوان الله عليهم..

قال الإمام البخاري في أول كتاب الإيمان: «وهو قول وفعل، ويزيد وينقص قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] و ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣] و ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] و ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧] و ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ [المدثر: ٣١] وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وقوله جل ذكره: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢] والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم

بحريص.. وقال إبراهيم ــ عليه السلام ــ ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة، وقال ابن مسعود: اليقين الإيمان كله. وقال ابن عمر: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر» [فتح الباري: ١/٤٣ ــ ٤٦ هامش].

وقال البخاري في باب زيادة الإيمان ونقصانه من كتاب الإيمان: باب زيادة الإيمان ونقصانه، وقول الله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ و ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص.

ونقل ابن حجر في الفتح قول البخاري: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص..».

كما نقل قول الإمام الشافعي: «الايمان قول وعمل ويزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ثم تلا: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾» [فتح الباري: ١/٤٤].

ونقل الإمام النووي في شرح مسلم قول ابن بطال «فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص، فإن قيل الإيمان في اللغة التصديق؟ فالجواب: أن التصديق يكمل بالطاعات كلها، فكلما ازداد المؤمن من أعمال البر كان إيمانه أكمل، وبهذه الجملة يزيد الإيمان وبنقصانها ينقص، فمتى نقصت أعمال البر نقص كمال الإيمان ومتى زادت زاد الإيمان كمالاً». [شرح النووي على مسلم: ١/١٤٦].

ولخص النووي قول السلف في هذا الموضوع «فإذا تقرر ما ذكرناه من مذاهب السلف، وأئمة الخلف فهي متظاهرة متطابقة على كون الإيمان

يزيد وينقص، وهذا مذهب السلف والمحدثين وجماعة من المتكلمين.. وأنكر أكثر المتكلمين زيادته ونقصانه، وقالوا: متى قبل الزيادة كان شكاً وكفراً.. قال المحققون من أصحابنا المتكلمين: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص، بزيادة ثمراته وهي الأعمال ونقصانها.. قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف، وبين أصل وضعه في اللغة وما عليه المتكلمون..

وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كان ظاهراً حسناً، فالأظهر ــ والله أعلم ــ أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشبهة، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال. وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم فليسوا كذلك..

فهذا مما لا يمكن إنكاره، ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق لا يساويه تصديق آحاد الناس.

ولهذا قال البخاري في صحيحه: «قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل..» [شرح النووي: ١/١٤٨ ــ ١٤٩].

نأخذ من الآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والعلماء على أن الإيمان يزيد وينقص.

فالقرآن صرح بزيادة الإيمان ولم يتحدث عن نقصانه، ولكن يستدل من الآيات على نقصان الإيمان ولهذا يقول ابن حجر في فتح الباري: «ثم شرع المصنف يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة وبثبوتها يثبت

المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة» [فتح الباري: ٩٦/١].

وإذا ما سألنا ما هو الذي يزيد في قلب المؤمن عندما يزداد إيمانه، وعندما يسلك الوسائل إلى هذه الزيادة؟ نجد الجواب أن التصديق هو الذي يزيد، وأن اليقين هو الذي يزيد، وأن الاطمئنان هو الذي يزيد، وأن الثقة هي التي تزيد.. وهي كلها من الإيمان.

قال الإمام سيد قطب في تفسير آية زيادة الإيمان في الظلال ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: والقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً وما ينتهي به إلى الاطمئنان.. إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلاَّ الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان.. كما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيماناً، فإن القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيماناً، لذلك يتكرر في القرآن تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٧].. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٥٢].

ومن ذلك قول أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كنا نؤتىٰ الإيمان قبل أن نؤتى القرآن..

وبهذا الإيمان كانوا يجدون في القرآن ذلك المذاق الخاص، يساعدهم عليه ذلك الجو الذي كانوا ينسمونه، وهم يعيشون القرآن فعالاً

وواقعاً، ولا يزاولونه مجرد تذوق وإدراك..» [الظلال: ٣/ ١٤٧٥].

وإذا ألقينا نظرة على الآيات التي تقرر زيادة الإيمان فإننا نجدها تشير إلى الوسائل التي تحقق هذه الزيادة، وتضعها بين أيدي المؤمنين الحريصين على زيادة إيمانهم ليأخذوا بها:

ومن أهم هذه الوسائل:

١ ـ العبادة بشعائرها المختلفة، وعلى الطريقة التي أداها رسول الله ﷺ والعابدون المخلصون. وآيات الأنفال تشير إلى هذه الوسيلة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٣].

الوسائل في هاتين الآيتين هي ذكر الله، وسماع الآيات، والتوكل على الله وإقامة الصلاة، والصدقة في سبيل الله..

إن هذه الخصال تعتبر وسائل لزيادة الإيمان واليقين والاطمئنان من جانب، وتعتبر ثمرة من ثمرات الإيمان، ومن نتائجه وآثاره من جانب آخر.. كما تعتبر أيضاً البيئة المناسبة التي ينمو فيها الإيمان، ويتفاعل معها ويحيا من خلالها.

فهل نحن نجد هذا عندما نؤدي هذه العبادات؟ هل نشعر بزيادة الإيمان واليقين والاطمئنان بعد كل واحدة منها؟ هل نلاحظ نمو الإيمان وحياته مع كل منها؟

إذا لم نجد هذا فلا بد من إعادة النظر فيها وإحسان النظرة إليها، وإجادة أدائها وممارستها، وجعلها وسيلة إلى غاية وهي زيادة الإيمان وحياته..

٢ ــ ومن وسائل زيادة الإيمان ما وضحته آية سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

إن سماع آيات الله تتلى على المؤمن يزيده إيماناً ويقيناً وطمأنينة، إنه يتأثر بكلام الله، ويبدو التأثر على قلبه وجوارحه وكيانه وحياته..

إن هذه الآية تشير إلى العلم كوسيلة أساسية لزيادة الإيمان، العلم بالله وكلامه وآياته، كما تشير إلى وسيلة أخرى هي الذكر لهذه الآيات، وليس الذكر بتلاوتها باللسان فقط، لكنه الذكر الصحيح الذي يستغرق الكيان، والذي يشارك فيه القلب اللسان.

والعجيب أن مجرد سماع آيات الله عند المؤمنين الخاشعين يزيدهم إيماناً، كما تشير آيتا الأنفال والتوبة ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ والسماع هنا ليس بحاسة السمع فقط وإنما السماع بكل الحواس وكافة المشاعر وكل الكيان.. السماع الذي يشارك فيه القلب الأذن لذة السماع والاستماع والاستمتاع.. فهل نحن هكذا عندما نسمع القرآن، ونذكر الله من خلال القرآن؟

٣ ــ ومن هذه الوسائل ما في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ [المدثر: ٣١].

وهي تدخل في باب العلم كوسيلة لزيادة الإيمان. المؤمنون يزدادون إيماناً ويقيناً عندما يعلمون أمور العقيدة وقضاياها، وعندما يعلمون عن عالم الملائكة الأبرار وعددهم وصفاتهم وأعمالهم، وعندما يعلمون عن اليوم الآخر وأحداثه، وعن جهنم وعذابها وصفاتها وخزنتها، وعندما

يعلمون عن الجنة ونعيمها ولذتها وخيراتها.. علمهم بهذه الأشياء يجعلهم يحبون عالم الملائكة ويطلبون أن يكونوا من أهل الجنة، ويتحرجون من المعاصي التي توصلهم إلى النار، لكن العلم الذي تشير إليه هذه الآية ليس العلم النظري الذي يحصله الإنسان بالثقافة والنظر والذهن، وإنما العلم الإسلامي الإيماني الذي يتلقاه بوعيه وعقله وقلبه، ويحصله بكل كيانه وحواسه، ويتأثر به في حياته..

٤ ـ ومن وسائل زيادة الإيمان ما تشير إليها ثلاث آيات من سور آل عمران والأحزاب والفتح: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وهذه الآية نزلت في عقاب غزوة أحد، بعدما لحق رسول الله ﷺ وصحابته ـ من بعد ما أصابهم القرح في أحد ـ بجيش قريش الذي يقوده أبو سفيان، فأرسل أبو سفيان إلى المسلمين أنه جمع لهم جيشاً كبيراً لا قِبل لهم به، وأشاع هذا بينهم ليقذف الوهن والخوف في قلوبهم، ولكن المسلمين لما سمعوا هذا التخويف قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ لم يقولوها بلسانهم وإنما بكيانهم، ولم ينطقوا بها جزئية عقيدية ذهنية باردة، وإنما عاشوها حقيقة اعتقادية إيمانية حية واقعية. وهذه الكلمة زادتهم إيماناً، وهذا الموقف زادهم إيماناً.

والآية الثانية التي تشير إلى نفس الوسيلة هي قوله تعالى عن المؤمنين في غزوة الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

تداعى الأحزاب في بلاد العرب على المسلمين في المدينة،

وحاصروهم من كل جانب ليقضوا عليهم ويستأصلوهم، ولكن المؤمنين بدل أن يسيطر عليهم الخوف والهلع، وأن يقذف في قلوبهم الرعب، وأن يصابوا باليأس والقنوط، وأن يلقوا السلاح ويستسلموا للأعداء.. بدل أن يفعلوا ذلك ـ وليسوا له بأهل ـ استعلوا على كل هذا بإيمانهم، وتوجهوا إلى ربهم، وتذكروا وعوده إليهم بحرب الأعداء لهم وانتصارهم عليهم، وعاشوا هذه المعاني بقلوبهم وكيانهم وحياتهم فزادتهم هذه الحادثة إيماناً ويقيناً، وشجاعة وإقداماً، وعزة واطمئناناً.

وهناك آية ثالثة تشير إلى نفس الوسيلة، ونزلت في مناسبة مشابهة لما سبق، إنها مناسبة المعركة وجو الحرب والجهاد.. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ ﴾ [الفتح: ٤].

حاولت قريش أن توقع في صفوف المسلمين في صلح الحديبية، وأن تفرق بينهم، وأن تزيل الطمأنينة التي هم فيها، وأن تحل محلها القلق والهلع والاضطراب، لكن المؤمنين توجهوا إلى ربهم يطلبون منه المدد والتثبيت والسكينة واليقين، فاستجاب الله لهم وأنزل عليهم السكينة والأمن والطمأنينة واليقين، لما علم ما في قلوبهم من الإيمان والصدق والإخلاص، فتفاعلت هذه السكينة مع الإيمان الحي الراسخ في قلوبهم فازدادوا إيماناً مع إيمانهم، وتضاعف رصيدهم من الإيمان في يوم الحديبية بدل أن ينقص ويتلاشى، وقوي إيمانهم هناك بدل أن يضعف، ونما إيمانهم بدل أن يذوي ويموت..

نأخذ من هذه الآيات الثلاث وسيلة أساسية لزيادة الإيمان، إنها العمل في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله، والحركة بهذا الدين، الحركة بالإيمان والإسلام عملياً..

إن الإيمان لن يؤخذ أو يُتلقى تلقياً ذهنياً بارداً في محاضرات نظرية ثقافية، إن الإيمان لن يرسخ في القلب، ولن يزداد فيه، ولن يؤثر في الكيان؛ إلاَّ إذا أخذه صاحبه من الميدان، من المعركة، من الجهد والجهاد، من الحركة والعمل والسعي، من مواجهة الناس والتفاعل مع الأحداث والتأثير في المجتمع ومجاهدة الجاهلية.. بهذه الوسيلة تستقر حقائق الإيمان في القلب، وترسخ فيه وتنمو.. هكذا تلقى الصحابة إيمانهم وهكذا عاشوا به، وبهذا زاد عندهم، ولا طريق إلاَّ هذه الطريق التي خطها رسول الله ﷺ للمؤمنين من بعده.. فأين نحن من هذه الوسيلة؟..

• • •

نقصــان الإيمــان

لم ترد في آيات القرآن إشارة إلى نقصان الإيمان.. لكن وردت هذه الإشارة في الأحاديث الصحيحة لرسول الله ﷺ، كما ورد التصريح بنقصانه في كلام علماء السلف من المفسرين والمحدثين.. وقد نقلنا عبارات لهم في المبحث السابق «زيادة الإيمان».. كما أثبتنا هناك كلام ابن حجر الذي استدل على نقصان الإيمان من آيات القرآن.. لأن النقصان في مقابلة الزيادة وكل قابل للزيادة قابل للنقصان لا محالة..

والذي يهمنا هنا أن نلفت الأنظار إلى هذه المسألة، وأن نلحظ مظاهر نقصان الإيمان وأسبابه عند المؤمن.

المؤمن حريص على زيادة إيمانه، وحريص على الأخذ بالوسائل والأسباب التي تحقق هذه الزيادة، وحريص على استمرار الملاحظة والمحاسبة والمراقبة، وعلى الوقوف على مظاهر هذه الزيادة في قلبه وكيانه وحياته..

وبالنسبة إلى نقصان الإيمان يجب أن يكون المؤمن حذراً من حصوله عنده، حذراً من سلوك الأسباب المؤدية إليه، حذراً من التلبس بكل ما يقود إليه، ملاحظاً بصيراً، ومراقباً دقيقاً، لمظاهر هذا النقصان في بداياتها الأولى، حتى يزيلها ويقضي عليها قبل أن تستفحل فيه..

إن الإيمان متأثر بسلوك وممارسات صاحبه، فلذلك يضعف هذا الإيمان وينقص إذا وقع صاحبه في الباطل، ويذوي وقد يموت إذا أقبل صاحبه على المنكرات والمحرمات والمعاصي..

لا أدري لماذا يُفرِّط أحدنا بإيمانه؟ ولماذا يهون عليه أن ينقصه أو يضعفه؟ ولماذا يسلك من الوسائل ما يحقق هذا الخطر؟ ولماذا لا يُقبل على نفسه بالتربية والاستقامة والصلاح والعبادة ليحقق لإيمانه وجوده وقوته وحيويته؟

إننا نعيش في زمن عجيب كثر فيه أعداء الدين، أعداء الحق والفضيلة والهدى، وتكاثر فيه أهل الباطل وجنود الشر وشياطين الإنس والجن.. وانتشر لصوص الإيمان من هؤلاء بين المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، وسلكوا مختلف الوسائل لسرقة الإيمان من قلوبهم وقلوبهن، أرادوا إنقاص الإيمان وإضعافه وإماتته والقضاء عليه عند هؤلاء، وهيأوا لهم من الوسائل الخبيثة والأساليب الشيطانية والمكر العجيب، ما جعلهم يُقبلون عليها بغفلة وسذاجة، ويأخذون هذا «الطعم» الدنس الخبيث برغبة ولهفة.. وانطلت عليهم الحيلة، وسرى فيهم ذلك المكر.. وفتِّش عن إيمانهم بعد هذا التيه والضياع، وانظر كم بقي في قلوبهم منه!! وإن بقي منه شيء فانظر مقدار حيويته وحياته وفاعليته!! وقدرته على التوجيه والزيادة والقيادة لأصحابه!!

لا بد من استمرار الحذر من قبل المؤمنين في هذا الزمان، خشية أن يقعوا في أحابيل الشياطين الجاهليين، ولا بد من مضاعفة اليقظة ليبقى المؤمن في دائرة الإيمان الحي النافع، وضمن جنود الله وأهله وخاصته، ولا بد من تشديد الحراسة القوية على القلوب وما فيها من إيمان واطمئنان ويقين، ولا بد من تعاهد الإيمان والكشف عنه، والملاحظة الواعية في كل

يوم بل في كل ساعة له، لأن هذا الإيمان هو أنفَس وأغلى ما يملكه المؤمن.. لا بد أن يعود المؤمن إلى إيمانه بعد كل مواجهة مع شياطين الإنس والجن، وكل تعامل مع الجاهلية من حوله، لينظر مقدار تأثره بما رأى أو سمع أو قرأ أو واجه، لينظر أثر هذا على إيمانه. هل تأثر بهذا فنقص وتصاغر وتضاءل؟ فإن كان كذلك يسارع بعلاجه وتقويته وزيادته وإنارته، ليعود إليه نوره ويسترد قوته وعافيته وحياته وحيويته..

إنه الجهاد الدائب، وإنها المجاهدة المستمرة، وإنها المعركة المفروضة علينا مع الجاهلية والباطل والشياطين من حولنا.. هذا قدَرنا، وهذا واجبنا، والله معنا وهو أكبر ناصر ومعين، والإيمان معنا وهو الموجه الرشيد، والقرآن معنا وهو القائد الرائد..

وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

إن الشيطان له نزغات ينزغ بها المؤمنين ويوجهها إلى الإيمان في قلوبهم ــ وما أكثرها في هذا الزمان ــ وإن الشيطان يطوف على المؤمنين ويحاول أن يمس الإيمان في قلوبهم لينقصه أو يضعفه ــ وما أكثر ما يطوف في هذا الزمان ــ وإن الشيطان وأعوانه وجنوده يبذلون كل جهودهم لإغواء الناس وإيقاعهم في الفساد والمعاصي، ويمدون لهم في الغي ويطيلون لهم الحبال، ويزينون لهم الشر ليقبلوا عليه برغبة، ولا يقصرون عن هذا المدد الشيطاني الخبيث، ولا يملون من تكراره واستمراره، ولا يسأمون من مداومته.. المهم أن يفسد الناس وينحرفون وينحطون ويكفرون ويتشيطنون. أليسوا بهذا يحققون الهدف من وجودهم وشيطنتهم؟

أما المؤمنون فإنهم في أمان من هؤلاء الشياطين وشيطنتهم، بشرط أن يواجهوا مكرهم وغيهم ونزغاتهم ومددهم ومداومتهم بالاستعاذة بالله واللجوء إليه والاعتماد عليه وهو نعم الوكيل.. وبالبصر الدائم والبصيرة المستمرة والمراقبة الواعية والذكر والتذكر المتجدد..

قال الإمام الطبري في تفسير الآيات السابقة: «وإنما هذا خبر من الله عن فريقي الإيمان والكفر، بأن فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفَّتهم رهبته عن معاصيه، وردَّتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم من زلة.. وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غياً إلى غيهم، إذا ارتكبوا معصية من معاصي الله، لا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادة منها، فهو أبداً في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيده أبداً.. لا يقصر الإنس عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مده منه كما قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يُقصِرون﴾: «لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم» [تفسير الطبري: ١٣/٣٣٨].

هذا الزمان الذي نعيش فيه هو زمان الفتن والابتلاءات، هو زمان محاربة الحق ومواجهة الإيمان، تنصب فيه جهود الشياطين الكافرين على المؤمنين، وتوجَّه أساليبهم ومكائدهم إلى الإيمان في قلوبهم.. ويغفل بعض المسلمين عن المراقبة والمواجهة والتربية والمجاهدة، فيسقطون في الميدان، ويخسرون الاطمئنان، ويُسلبون الإيمان..

روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا..

وعن أثر الفتن على الإيمان والأمانة، ونقصانه وضعفه في قلوب غير المجاهدين اليقظين، روى البخاري ومسلم والترمذي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، فرأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا عن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة. .

ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكْت (والوكت هو الأثر اليسير) ثم ينام النومة، فتقبض الأمانة في قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل (والمجل هو النفط الذي يكون في اليد من العمل بفأس أو نحوه) كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتَبراً (أي مرتفعاً منفوخاً) وليس فيه شيء ــ ثم أخذ (حذيفة) حصا فدحرجه على رجله ــ فيصبح الناس يتبايعون (من البيع والشراء) فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. . ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت (من البيع والشراء) لئن كان مسلماً ليردنَّه عليَّ دينُه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنَّه عليَّ ساعيه (أي ينصفني منه عامل المدينة) وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلاَّ فلاناً وفلاناً. .».

وندعو إلى إعادة قراءة هذا الحديث العجيب لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه ــ المتخصص في علم الفتن وعلم الشر والمنافقين وأمين سر رسول الله ﷺ ــ وندعو إلى ملاحظة أبعاده الواقعية، وانطباقه العجيب على نماذج عديدة لمن يزعمون أنهم مسلمون، في مختلف المواقع والوظائف والمسؤوليات. . وندعو إلى ملاحظة مقدار ما عند بعض هؤلاء من الإيمان

والأمانة، وماذا بقي لهم من رصيد الإيمان بعدما تناقص تناقصاً ملحوظاً في قلوبهم. .

وأخيراً نجمل هذا الموضوع بالإشارة إلى أهم أسباب نقصان الإيمان، لنقف عليها فنحذرها ونتجنبها ونحرص على عدم الوقوع فيها:

١ ــ المعاصي على اختلاف أنواعها وأشكالها ودرجاتها، الصغائر منها والكبائر، الفردية منها والجماعية، الشخصية منها والعامة، القلبية منها والبدنية، السلوكية منها والعبادية. . إن هذه المعاصي إذا اقترفها الإنسان وصلت إلى قلبه فنُكِت فيه نكتة سوداء، وكلما زادت المعاصي زادت النقط السوداء في القلب وزادت مساحة السواد والظلام فيه، وفي المقابل تضاءل الإيمان في قلبه ونقص وصغر وتقلص، لأن المعاصي والإيمان لا يجتمعان في قلب مؤمن، فإذا أشرق قلبه بالإيمان تجنب المعاصي، وإذا أقبل على المعاصي علمنا أن إيمانه ناقص ضعيف عاجز عن الحياة والقوة والتأثير. .

روى الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت. فذلك قول الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾» [المطففين: ١٤].

ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾».

وقال الحسن البصري في تفسير الران في الآية ــ كما نقله عنه ابن كثير ــ: «هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت. . وكذا قال مجاهد بن جبر وقتادة وابن زيد وغيرهم» [تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٨٥].

٢ ــ الشبهات التي ترد على تصور المسلم عن الألوهية والربوبية، وعن أسماء الله وصفاته، وعن الإيمان وأركانه، وتأثره بهذه الشبهات التي يثيرها الكافرون، وتأثره بالمكائد والسموم والافتراءات والإشاعات التي يطلقونها عن الإسلام والإيمان، تأثره بأقوالهم ودراساتهم وأفكارهم وكتاباتهم، واقتناعه بأضاليلهم وخوضهم وضياعهم.. إن إيمانه يتناقص في قلبه إذا اقتنع بما هم فيه من باطل، هذا إذا لم يتبدد ويخرج من القلب لأنه لا يطيق العيش مع الوافد الجديد، مع نتاج الجاهليين الكافرين.

٣ ــ الشهوات التي قد يرتكبها، أو التي ترد على قلبه وحواسه وجوارحه وخواطره وتصوره.. هذه الشهوات والمغريات القادمة من عند الشياطين والكافرين والتي يزينونها للمسلمين، ويرغبونهم فيها ويدغدغون بها نفوسهم المريضة وقلوبهم المضطربة وخيالهم المنحرف.. فإذا مارسها المسلم وسقط فيها تناقص إيمانه، وإذا لم يمارسها ولكنها هجمت على تصوره وأحاسيسه ومشاعره وخياله، وملأت عليه لحظات تفكيره وأوقات تأمله وخطرات خياله وهواجس نفسه، فإنها كذلك تنقص إيمانه.. فكيف يزيد إيمان من يكون مشغولاً ذهنياً ونفسياً وخيالياً بالشهوات وفتنتها وإن لم يمارسها؟؟

٤ ــ التنازل عن المستوى الإيماني للشخصية الإسلامية المؤمنة، التي يريدها الله سبحانه وتعالى، ويطلب من كل منا أن يتصف بها.. إن القرآن الكريم قد حدد معالم ومواصفات الشخصية الإسلامية المنشودة.. وإن رسول الله ﷺ قد عمل على إيجادها عملياً من خلال الصحابة الكرام، وقد زادت معالمها وصفاتها توضيحاً وبياناً بأحاديثه الشريفة.. ولم يعد المسلم جاهلاً هذه الصفات ولا السبيل إلى الاتصاف بها.. إن صفات المؤمن تساعد على زيادة إيمانه، بل هي ثمرة لزيادة الإيمان، وإن أخلاق

المؤمن الكريمة هي من لوازم الإيمان وثماره، ولا أعني الأخلاق بمفهومها الضيق من الصدق والأمانة والوفاء، ولكني أعني مفهومها الشامل للشخصية الإيمانية الكريمة مثل: الصدق والأمانة، والوفاء والإخلاص، والمحبة والرضى، والولاء والعزة، والأنفة والإقدام، والجرأة والاستعلاء، والجهد والتميز، والمفاصلة والجهاد وغير ذلك.. كل خلق من هذه الأخلاق يزيد الإيمان. وإنَّ ترْك أي واحد منها يعني خللاً في البناء الأخلاقي للمسلم، وتشوهاً في الشخصية الإسلامية المنشودة.. وإن أي تخلق بنقيض هذه الأخلاق يعني ضعفاً للإيمان ونشراً للران في القلوب ، وانحيازاً إلى جانب الشيطان..

٥ ــ ترك العمل الجاد للإسلام، والتخلف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتخلي عن الحركة بالإسلام ومواجهة الجاهلية ومجاهدتها به، وعدم رفع راية الحق ودعوة المهتدين للانضواء تحتها والانحياز إليها، والرغبة في القعود البارد والاعتزال الميت والاعتكاف البليد، وإيثار الراحة والسلامة على الحركة والسعي والجهاد، وضعف الهمة، وقعود الإرادة، وجبن النفس.. كل هذا ينقص الإيمان، ويجمِّده في خانة الذهن النظري الجامد..

• • •

كتابـة الإيمـان

الإيمـان هـو الحقيقـة الحبيبـة العظيمـة، مـا إن يستقـر فـي القلـب حتـى يرسخ فيه، ويضرب بجذوره المتينة القوية في أعماقه، ويملأ عليه وجوده وحياته. .

هذا الإيمان يكتبه الله في قلوب أصحابه كتابة دائمة ثابتة، فلا يفارقها ما دامت هي مع الله. . قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

فهؤلاء المؤمنون الموصوفون في هذه الآية استعلوا على الواقع المر الذي يعيشون فيه، ففاصلوه على أساس الإيمان، فلم تقم رابطة بينهم وبين الكفار من حولهم، لا يوالونهم ولا يوادونهم ولا يحبونهم ولا يناصرونهم. . إن الإيمان هو الذي حال بينهم وبين الوقوع في هذا المرض الخطير والمنكر العظيم، والازدواجية القاتلة، الازدواجية بين ما يعتقدونه نظرياً من كفر الكفار ووجوب مفاصلتهم، وما يمارسونه عملياً من الموالاة والموادة والمناصرة لهم. . هذه الازدواجية المنكرة يزاولها بعض من يزعمون الإيمان الخالص من مسلمي هذه الأيام، فيوالون

ويوادون ويناصرون ويحالفون ويعاهدون الكافرين والظالمين والمحاربين لله ولرسوله ولدينه وللمسلمين. . ويزعمون أنهم ما زالوا مؤمنين صالحين.

إن الإيمان عندما يثبت في قلب المؤمن يكون زاداً له على المفاصلة على أساس العقيدة، ويكون وسيلة أساسية لاستعلائه بإيمانه على الأعداء من حوله.

الآية تعلل لنا سر انتصار المؤمنين في مفاصلة أعدائهم واختيارهم جانب الله ورسوله والمؤمنين، وتصنيفهم الناس على أساس إيمانهم ومحبتهم وطاعتهم لله ولرسوله. إن السر في هذا هو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ السر هو كتابة الإيمان في قلوبهم، كتبه الله عز وجل فثبت ورسخ واستقر، وجمع الله قلوبهم عليه. . وما كتبه الله فلا يقدر على محوه أحد، ولا على إزالته وإبطاله أحد، وما أثبته الله فإنه أقوى وأثبت من كل المقومات والمثبطات، وما أراده الله فإنه كائن لا محالة بإذن الله.

قال الإمام الراغب: «ويعبَّر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة. . ويعبر بالكتابة عن القضاء المحض وما يصير في حكم المحض. . وعلى هذا حمل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾، فإشارة منه إلى أنهم بخلاف من وصفهم بقوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] لأن معنى أغفلنا من قولهم: أغفلت الكتاب إذا جعلته خالياً من الكتابة ومن الإعجام» [المفردات: ٤٢٣].

وقال الإمام الطبري في تفسير الآية «كتب في قلوبهم الإيمان» وإنما عنى بذلك قضى لقلوبهم الإيمان، ففي بمعنى اللام. وأخبر تعالى أنه كتب في قلوبهم الإيمان لهم، وذلك لما كان الإيمان بالقلوب وكان معلوماً

بالخبر عن القلوب المراد به أهلها اجتزى بذكرها عن ذكر أهلها. .» [تفسير الطبري: ٢٨/١٨].

وقال الإمام القمي النيسابوري «كتب أي أثبت في قلوبهم الإيمان إثبات المكتوب في القرطاس، وقيل معناه: جمع. والتركيب يدور عليه، أي استكملوا أجزاء الإيمان بحذافيرها، ليسوا ممن يقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، قال ابن عباس: أي نصرهم على عدوهم، وسمى النصرة روحاً لأن المرء يحيا بها، ولأن قلوبهم بلطفه تحيا حياة أبدية. . ويحتمل أن يكون الضمير «منه» للإيمان، على أنه في نفسه روح فيه حياة القلوب» [غرائب القرآن للقمي على هامش الطبري: ٢٨/٢٩].

إننا ـ مؤمني هذا الزمان ـ لا بد أن ننظر في قلوبنا، وأن نلحظ كتابة الإيمان وثباته فيها، وأن نتذوق استقراره فيها وجمعها عليه، واتجاه أجزائها ومنحنياتها وخفاياها وحناياها إليه، فإذا لاحظنا هذا وتذوقناه واستشعرناه وعشنا به وفي ظلاله، فسوف نرى حياة قلوبنا بهذا الإيمان، واستعلاءها بالإيمان، وتصنيفها الناس على أساس الإيمان، ومفاصلتها الأعداء ومواجهتهم بالإيمان، إننا أحوج ما نكون في هذا الزمان ـ عصر التدليس والتلبيس والمكر والتزوير ـ إلى أن نقف طويلاً أمام هذه الآية، وأن نعيش عملياً وواقعياً حقائقها، وأن ننطلق في واقعنا ومع من حولنا على أساسها، أساس كتابة الإيمان في القلوب بإذن الله، وجمعها عليه بأمر الله، وحياتها به إن شاء الله. عندها سننال رضوان الله، ويمن علينا أن نكون من حزبه وجنوده المنتصرين في الدنيا، المفلحين في الدنيا والآخرة، ويمن علينا بأن يدخلنا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. وإنها لمكاسب ضخمة وأرباح وافرة، رضوان وجنات مقابل مفاصلة وترك الكافرين. .

قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية: «وفي قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى، عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه، بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم» [٤/ ٣٢٩].

والأمر العجيب في فهم السلف الصالح لهذه الآية ما نقله الإمام ابن كثير عن سفيان قال: «يرون أنها نزلت فيمن يخالط للسلطان» [ابن كثير: ٤/ ٣٣٠].

فإذا كان أولئك السلف يوجهون هذه الآية إلى من يخالط السلطان ـ والسلاطين في زمانهم لم يحادوا الله ورسوله، فقد حكموا بالإسلام ولكن شاب ممارساتهم ظلم كبير للمسلمين، ومن أجل هذا نفر السلف من مخالطتهم ووجهوا هذه الآية إلى من يخالطونهم ـ فماذا نقول نحن في هذا الزمان الذي ما ترك فيه السلاطين والحكام وسيلة إلاّ وحاربوا فيها الله ورسوله ودينه والمؤمنين، واختاروا معسكر الكفر والضلال، وآثروا جندية حزب الشيطان، وطبقوا على شعوبهم شرع الجاهليين، وعبّدوهم لهم من دون الله.. ومع ذلك يزعمون أنهم مسلمون. والأغرب من هذا أننا نرى بعض من يَتَزَيَّىٰ بزي العلماء، ويتسمّى باسم الفقهاء، يوادون هؤلاء ويخالطونهم ويجالسونهم ويتقربون إليهم ويحرصون على أن يكونوا معهم، ويقدمون لهم الإسلام وفق أهوائهم وأمزجتهم، ويصدرون لهم من الفتاوى والخطب والتصريحات ما يبارك لهم ضلالهم وظلمهم وكفرهم وانحرافهم.. ويحاربون حزب الله وأولياءه وجنوده من أجلهم.. هل هؤلاء المتزلفون ممن كتب الله في قلوبهم الإيمان؟ وهل هم ممن أيدهم الله بروح من الإيمان؟ وهل هم ممن رضي الله عنهم بأعمالهم هذه؟ إن واقعهم وصِلاتهم وحياتهم تقول بعكس هذا تماماً..

نسأل الله أن يمن علينا بكتابة الإيمان في قلوبنا، ويإمدادنا بروح منه، وأن يديم علينا رضوانه فهو نعم العوض على ما نواجه من هؤلاء، وأن يثبتنا على هذا الحق حتى نلقاه..

• • •

نعمـة الإيمان

الإيمان نعمة، نعمة جليلة، ومنحة ربانية حبيبة، وفيض إلَهي غامر، ونور هادٍ مضيء.. هذه النعمة لا يعرفها إلاَّ من ذاقها، ولا يحس بها إلاَّ من عاشها..

هذه النعمة يمن الله بها على المؤمنين في أنه يمنحها لهم، ثم يمن عليهم في أنهم يتذوقونها ويعيشونها، يمن عليهم في أنه يجعلهم يحيون بها ويحسنون النظر إليها على أنها نعمة من نعم الله الغامرة، ومنة من مننه الفياضة، ورحمة من رحماته الوارفة.. فيحسنون النظر إلىٰ الإيمان، ويحسنون تذوقه، ويحسنون تصنيفه ضمن نعم الله ومننه وعطاياه..

إن المؤمن عندما يجد الإيمان ويعيشه فقد وجد كل شيء، وإن الإنسان عندما يفقد الإيمان والأمان، فقد فَقَدَ كل شيء، لأنه لن ينفعه شيء.. إنه لن ينفعه شيء.. إنه لن يجد عن الإيمان بديلاً، ولو كان هو الدنيا وما فيها..

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، ويدعو االمؤمنين إلى إحسان النظرة إلى الإيمان، وإحسان تصنيفه كأعظم نعم الله عليهم، وأوفر مننه وعطاياه إليهم، فيحرصون على هذا الإيمان، ولا يفرطون فيه.. وتتوجه قلوبهم وألسنتهم ومشاعرهم إلى الله وحده بالحمد والشكر والثناء..

لـم يفهـم بعـض الأعـراب زمـن رسـول الله ﷺ هـذه الحقيقـة، عنـدمـا أسلمـوا، فجـاءوا إلـى رسـول الله عليـه الصـلاة والسـلام يمنُّـون عليـه إسلامهم..

روى الإمام ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ ـ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا، وقاتلتْك العرب ولم نقاتلك. فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم..» [ابن كثير: ٤/ ٢١٩ ــ ٢٢٠].

وأنزل الله قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات: ١٧].

إن الله سبحـانـه وتعـالـى يـريـد أن يعلـم النـاس هـذه الحقيقـة، وأن يرشدهم إلى وجه الصواب في هذه المسألة.. لئن أسلموا وآمنوا فإنهم لن ينفعوا الله سبحانه بهذا. وإن كفروا فإنهم لن يضروا الله سبحانه بهذا.. فسبحان من لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية.. وقد قال الله في الحديث القدسي الشريف: «يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»..

إنهـم لـن يضـروا إلاَّ أنفسهـم عنـدمـا يكفـرون، ولـن ينفعـوا إلاَّ أنفسهـم عنـدمـا يؤمنـون، فإذا سـاروا في طـريـق الإيمـان فليحمـدوا الله وليشكـروه، وليعترفوا له بالمنة والفضل والعطاء..

ولهذا كم كان الأنصار فقهاء وعلماء وعظماء، عندما اعترفوا بالمنة والفضل لله سبحانه ولرسوله ﷺ.. وذلك بعد غزوة حنين، وتوزيع الرسول عليه السلام غنائم هوازن وثقيف على المؤلفة قلوبهم، إذْ لم يعط الأنصار منها شيئاً، وكأن بعضهم وجد في نفسه شيئاً، وكأن رسول الله عليه الصلاة

والسلام لمس هذا عندهم، فدعاهم إلى لقاء خاص ـ خاطب فيه الإيمان في قلوبهم خطاباً نبوياً مؤثراً. . واستل ما في قلوبهم من نزغات الشيطان استلالاً حكيماً عجيباً، قاموا بعده وقد تجدد إيمانهم وزاد زيادة عظيمة. .

روى ابن إسحاق في السيرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يَكُ في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلاَّ من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة. .

قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم.

فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

يا معشر الأنصار: ما مقالة بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم! ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى. الله ورسوله أمنّ وأفضل. .

قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقْتم وصُدِّقتم: أتيتَنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم!!.

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعب الأنصار. . اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

قال: فبكى القوم، حتى أَخْضَلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً. .» [السيرة النبوية لابن هشام بخدمة الأبياري وزملائه: ٤/١٤١ ــ ١٤٣].

نهدي هذه الحادثة ونسوق هذا المشهد، للمؤمنين ليعرفوا فضل الأنصار وعلمهم وفقههم وقوة إيمانهم، وتذوقهم لنعمة الإيمان واعترافهم بهذه النعمة والمنة لله ولرسوله. . ليحاولوا الاقتداء بهم في هذا التذوق والاعتراف والشعور. . كما نهدي هذه الحادثة للقادة والمسؤولين والموجهين ليعرفوا كيف يتقربون إلى شعوبهم ومرؤوسيهم، وكيف يتغلبون على مشكلاتهم، وما هي اللغة التي يخاطبون بها الآخرين، ويستخدمونها بدل البطش والظلم والإيذاء وكتم الأنفاس وتكميم الأفواه وتعطيل الحريات وإعلان حالة الطوارىء. . صلى الله عليك يا رسول الله يا قدوة العالم ورحمة العالمين. .

إن الذين لا يعلمون ولا يفقهون ولا يدركون نعمة الإيمان، هم الذين يمنون على الله وعباده بإيمانهم وإسلامهم. . ولهذا صححت تلك الآية لهؤلاء فهمهم، وصوبت لهم زاوية النظر وأساس التقييم والاعتبار. .

إن الأعراب الذين منّوا على رسول الله ﷺ بإسلامهم، هم الذين صححت لهم نفس السورة ـ الحجرات ـ فهمهم للإسلام والإيمان.. فهم قد ظنوا أنهم بمجرد نطقهم بالشهادتين وخضوعهم لرسول الله عليه السلام، صاروا مؤمنين.. فوضحت لهم آية سابقة أنهم ما زالوا في المرحلة الأولى وهي الإسلام الذي هو دون الإيمان، ولم يصلوا إلى المرحلة الثانية وهي الإيمان الإسلامي الخالص الحي.. ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

الذين ظنوا أنهم وصلوا مرحلة الإيمان وعاشوا في دائرته ـ وهم لم يصلوها بعد ـ هم الذين يمنُّون على الله بأيمانهم، ويمنّون على رسوله ﷺ بإسلامهم، ويمنّون على عباد الله بعبادتهم.. أما الذين وصلوا مرحلة الإيمان الصادق، وعاشوا في دائرته وأخلصت قلوبهم له، فقد عرفوا نعمة الإيمان، وتذوقوا لذة الإيمان، واعترفوا لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام بالفضل والمنة، كما مرَّ معنا قول الأنصار لرسول الله ﷺ.

فإذا ما رأينا مسلماً في زماننا يمن على الله بإيمانه وإسلامه، ويمن على المسلمين بعبادته، ويمن على الصالحين بصلاحه، ويمن على المجتمع بنظافته واستقامته، فإنما هذا جاهل في الحقيقة، أسلم ولما يدخل الإيمان قلبه..

المؤمن في زماننا يفرح ويسر لإيمانه وإسلامه وعبادته وأخلاقه، تسره صفاته، ويرضى برسالته واستقامته ونظافته وخدمته لأمته. وهو يعترف لله وحده بالمنة والفضل، ويتذوق نعمة الإيمان وحلاوته وطعمه، فيتوجه لسانه وكيانه إلى الله بالحمد والشكر والثناء، ويطلب من الله مزيداً من الإيمان والهداية والتوفيق، والثبات والتأييد.. ويستخدم هذه النعمة استخداماً

إيمانياً صالحاً لإصلاح نفسه وخدمة أمته ونشر الخير بين الناس وزرع الفضائل والحسنات بينهم، والتسابق في الخيرات والطاعات.. وبهذا يزداد إيمانه، وبهذا يكتب له الله الثبات على طاعته، وبهذا نعرف أنه يتذوق نعمة الإيمان، ويذوق حلاوته..

الإيمان نعمة من الله سبحانه، نعمة لا يعرفها إلاَّ من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه، ومن ذاق عرف، ومن جرب هذا صدَّق، ومن مر في حياته بهذا بقي يطلبه باستمرار.

والذي حرم نعمة الإيمان فقد حرم كل شيء، والذي فقدَ لذة الاطمئنان وبرد الراحة، فَقَدَ كل شيء.. ماذا حصَّل من دنياه من حرم لذَّة الإيمان ونعمته؟ إنه لو ملك الدنيا فسيبقى محروماً، سيبقىٰ قلقاً حائراً، مضطرباً مفزعاً، ضائعاً عدمياً.. باكياً شاكياً سائلاً متشككاً، مريضاً معقداً ممزقاً، ضاقت عليه دنياه وحياته ونفسه، فوقع في عقد وأمراض نفسية لا تنتهي، وأصيب بروحه وقلبه وضميره وإحساسه وشعوره وكيانه.. وقد يتخلص من هذه الدنيا بالانتحار. وما أكثر المعقدين نفسياً في الجاهلية المعاصرة!! وما أكثر المترددين على العيادات النفسية من كبار القوم وأغنيائهم ومثقفيهم هناك، وما أكثر المنتحرين من أولاد تلك الجاهلية هناك..

قال الأستاذ الإمام سيد قطب مبيناً نعمة الإيمان ومصوراً حال من فقد هذه النعمة: «إن رصيد الإيمان الذي تقوم الأمة المسلمة حارسة عليه في الأرض، ووارثة له منذ أقدم الرسالات، هو أكرم رصيد وأقومه في حياة البشرية. إنه رصيد من الهدى والنور، ومن الثقة والطمأنينة، ومن الرضا والسعادة، ومن المعرفة واليقين..

وما يخلو قلب بشري من هذا الرصيد حتى يجتاحه القلق والظلام، وتعمره الوساوس والشكوك، ويستبد به الأسى والشقاء.. ثم يروح يتخبط في ظلماء طاخية لا يعرف أين يضع قدميه في التيه الكئيب.

وصرخات القلوب التي حرمت هذا الزاد، وحرمت هذا الأنس، وحرمت هذا النور، صرخات موجعة في جميع العصور.. هذا إذا كان في هذه القلوب حساسية وحيوية ورغبة في المعرفة، ولهفة على اليقين. فأما القلوب البليدة الميتة الجاسية الغليظة، فقد لا تحس هذه اللهفة ولا يؤرقها الشوق إلى المعرفة.. ومن ثم تمضي في الأرض كالبهيمة تأكل وتستمتع كما تأكل الأنعام وتستمتع، وقد تنطح وترفس كالبهيمة، أو تفترس وتنهش كالوحش، وتزاول الطغيان والجبروت والبغي والبطش، وتنشر الفساد في الأرض.. ثم تمضي ملعونة من الله، ملعونة من الناس..

والمجتمعات المحرومة من تلك النعمة مجتمعات بائسة ــ ولو غرقت في الرغد المادي ــ خاوية ــ ولو تراكم فيها الإنتاج ــ قلقة ــ ولو توافرت لها الحريات والأمن والسلام الخارجي ــ وأمامنا في أمم الأرض شواهد على هذه الظاهرة لا ينكرها إلاَّ مراوغ يتنكر للحس والعيان!» [الظلال: ١/ ٣٤٢ ــ ٣٤٣].

وكلام الأستاذ الإمام سيد قطب عن الإيمان ونعمته ولذته كلام المجرب الخبير، الذي له دلالته وطعمه الخاص.. لقد مر هو بتجربة مضنية.. عاش فترة من الضياع والقلق والحيرة والشك والارتياب. كان فيها يسأل عن سر وجوده وحكمة هذا الوجود، ووظيفته ورسالته، من أين جاء؟ وإلى أين يسير؟ وما هي الطريق المغيبة؟ وسأل وتساءل، وصاح وبكىٰ، وتحسر وتوجع.. ولم يجد جواباً لأسئلته ولا قائداً له في محنته ولا مؤنساً له في حيرته..

وكان هذا في الثلاثينيات وأول الأربعينيات من هذا القرن، وكان سبب ضياعه إقباله على نتاج وفكر الغربيين الضائعين القلقين..

ثم منَّ الله عليه بمنة عظيمة، وأنعم عليه بنعمة الإيمان، فوجد نفسه وقلبه وإيمانه وحياته، وانتقل به الإيمان نقلة بعيدة إلى عالم الإيمان والعمل والاطمئنان واليقين والجهاد والاستشهاد..

وقد تحدثنا عن هذه المرحلة من حياته، وأبرزنا ملامحها وأسبابها، وأوردنا النماذج عليها في كتابنا «سيد قطب الشهيد الحي» فصل «رحلة الضياع» و «نقلة بعيدة».

ويعترف هو نفسه بموضوعية فريدة وجرأة بالغة وتواضع جم، بمروره بهذا الضياع والقلق في تلك الفترة، أثناء تفسيره لآية نعمة الإيمان من الحجرات ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ «يقول: يختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة الضياع والقلق، قبل أن أحيا في ظلال القرآن، وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم. ذلك الشعور الذي خَلَعَتْهُ روحي المتعبةُ على الكون كله، فعبرت عنه أقول:

وقف الكون حائراً أين يمضي ولماذا وكيف ــ لو شاء ــ يمضي؟
عبث ضائع وجهد غبين ومصير مقنع ليس يرضي

فأنا أعرف اليوم ــ ولله الحمد والمنة ــ أنه ليس هناك جهد غبين، فكل جهد مجزي، وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مثمر، وأن المصير مُرضٍ، وأنه بين يدي رب عادل رحيم. وأنا أشعر اليوم ــ ولله الحمد والمنة ــ أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً، فروح الكون تؤمن بربها، وتتجه إليه، وتسبح بحمده. والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له، في طاعة وفي رضى وفي تسليم..

وهذا كسب ضخم في عالم الشعور وعالم التفكير، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب، فوق ما هو كسب ضخم في مجال العمل والنشاط والتأثر والتأثير. . [الظلال: ٦/ ٣٣٥٢ ـ ٣٣٥٣].

ونحب من باب التحدث بنعمة الله، وإظهار فضله ومنته علينا بالتوفيق والإيمان، والعمل والالتزام أن نورد نموذجاً شعرياً للضائعين العرب الذين فقدوا الإيمان ونعمته ولذته. نموذج لأحد القدماء من هؤلاء، ونموذج آخر لأحد المعاصرين:

قائد الضائعين السابقين هو عمر الخيام الذي يقول:

لبستُ ثوب العمر لم أُستشر   وحرت فيهِ بين شتى الفِكَر
وسوف أنضو الثوب عني ولم   أدر لماذا جئت أين المفر؟

وقد أورد له سيد قطب طرفاً من قصيدة له يسجل فيها ضياعه وقلقه، وذلك حيث يقول:

أُحِسُّ في نفسي دبيبَ الفناء   ولم أُصِبْ في العيش إلا الشَّقاء
يا حسرتا إن حان حيني ولم   يُتَح لفكري حل لغز القضاء
تروح أيامي ولا تغتدي   كما تهبُ الريحُ في الفَدْفَد
وما طويتُ النفسَ هَمّاً على   يومين: أمسِ المنقضي والغد
غدٌ يظهر الغيب واليومُ لي   وكم يخيب الظنُّ في المقبل
ولست بالغافل حتى أرى   جمالَ دنياي ولا أجتلي
سمعتُ في حلميَ صوتاً أصاب   ما فتق النومُ كِمام الشباب
أفِقْ فإن النومَ صنوُ الردى   واشربْ فمثواك فِراش التراب
سأنتحي الموت حثيثَ الورود   ويُمْحىٰ اسمي من سجل الوجود
هات اسقنيها يا منى خاطري   فغايةُ الأيام طولُ الهجود

[الظلال: ١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣ حاشية]

أما الضائعون العرب المعاصرون فيعبر عن ضياعهم أحدهم ــ وهو الشاعر النصراني البائس إيليا أبو ماضي، في قصيدته «الطلاسم» ــ في قصيدة شعرية تسجل أفكار الضائعين وخواطرهم، وتورد نماذج لسؤالاتهم واستفساراتهم، وتُري المؤمنَ حقيقتَهم، وتضع يديه على قلقهم وحيرتهم واضطرابهم.. وتعرض كل هذا في قالب شعري بليغ!! وصورة فنية معبرة. وإننا ــ وإن أنكرنا معاني القصيدة ومضمونها وما فيها من كفر وضلال وضياع ــ نسجل تقديرنا للصورة الشعرية التي عرض بها الشاعر فكره، وثناءنا على أسلوبها الجميل وصياغتها البليغة وموسيقاها الرقيقة وإيقاعها الشجي، ونعترف لصاحبها بشاعرة موحية.

يقول في تلك القصيدة:

جئتُ، لا أعلمُ من أينَ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قُدّامي طريقاً فمضيتُ
وسأبقى سائراً إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ كيف أبصرتُ طريقي؟
لست أدري!!

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود؟
هل أنا حر طليق أم أسيرٌ في قيود؟
هل أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مقود؟
أتمنى أنني أدري.. ولكن:
لست أدري!!

وطريقي ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور؟

أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير؟
أم كلانا واقف والدهر يجري؟
لست أدري!!
ليت شعري وأنا في عالم الغيب الأمين
أتُراني كنت أدري أنني فيه دفين
وبأني سوف أبدو وبأني سأكون
أم تُراني كنت لا أدرك شيئاً
لست أدري!!
أتُراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً
كنت محواً أو محاولاً أم تراني كنت شيئاً؟
ألهذا اللغز حل؟ أم سيبقى أبدياً؟
لست أدري.. ولماذا لست أدري..
لست أدري!!
إن يك الموت قصاصاً! أي ذنب للطهارة؟
وإذا كان ثواباً، أي فضل للدعارة؟
وإذا كان وما فيه جزاء أو خسارة؟
فلم الأسماء إثم وصلاح؟
لست أدري!!
إن يك الموتُ رُقاداً بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل؟
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرحيل؟
ومتى ينكشف الستر فيدري؟
لست أدري!!

إن يـك المـوت هجـومـاً يمـلأ النفـس سـلامـاً
وانعتـــاقـــاً لا اعتقـــالاً وابتـــداءً لاختـــامـــاً
فلمـــاذا لا أعشـــق النـــوم ولا أهـــوى الحِمـــامـــا
ولمـــــــاذا تجـــــــزع الأرواح منـــــــه؟
لست أدري!!
أوَراء القبـــر بعـــد المـــوت بعـــث ونشـــور
فحيـــاة، فخلـــود، أم فنـــاء فـــدثـــور؟
أكـــلام النـــاس صـــدق؟ أم كـــلام النـــاس زور؟
أصحيـــــح أن بعـــــض النـــــاس يـــــدري؟
لست أدري!!
إن أكـــن أُبعـــث بعـــد المـــوت جثمـــانـــاً وعقـــلاً
أتُـــرى أبعـــث بعضـــاً أم تُـــرى أبعـــث كُـــلا؟
أتُـــرى أبعـــث طفـــلاً أم تـــرى أبعـــث كهـــلا؟
ثـــم هـــل أعـــرف بعـــد البعـــث ذاتـــي..
لست أدري!!

[الجداول لإيليا أبو ماضي: ١٠٨ ـ ١٣١]، وقد نقلها عنه الأستاذ عمر الأشقر في كتابه «العقيدة في الله: ١٠ ـ ١٢»، والدكتور يوسف القرضاوي في كتابه «الإيمان والحياة: ١١٣».

إن هذه الأسئلة التي أثارها أبو ماضي في قصيدته، هي أسئلة يرددها المحرومون من نعمة الإيمان والفاقدون حلاوته وأنسه وطعمه ورائحته، في القديم والحديث على اختلاف الأماكن والأقوام.. وهذه الأسئلة عندنا نحن المسلمين المؤمنين لا تقلقنا ولا تؤرقنا ـ ولله الحمد والمنة والفضل ـ إننا نجد في ديننا الإجابات المفصلة عليها، وإننا نجد في قرآننا وفي أحاديث

نبينا عليه الصلاة والسلام الكلام اليقيني الصحيح الصادق عنها.. إن الله سبحانه هو الذي منَّ علينا أن هدانا للإيمان، وهو الذي أنعم علينا بنعمة الإيمان.. وهو الذي تفضل وتكرم بتوضيح طريقنا وغاياتنا، وتعريفنا برسالاتنا والحكمة من وجودنا ووجود الكون من حولنا، هدايتنا إلى سعادتنا وطمأنتنا إلى نهايتنا.. إنها ليست طلاسم في تصور المسلم وتفكيره وشعوره، ولكنها معالم بارزة، ومنارات هادية. لقد حُلت هذه الألغاز بنعمة الإيمان، ولقد زالت تلك الطلاسم والقيود بفضل الإيمان. ولقد تبدد ما حولها من ظلمات بأنوار الإيمان.. فالحمد لله على نعمة الإيمان. ونسأل الله المزيد منها والثبات عليها والحياة بها..

وفي النفس نية أن أتوفر على هذه الطلاسم لأحلها، وعلى هذه الأسئلة والألغاز لأجيب عليها وأبينها، على أساس بيان القرآن لها وتوضيح رسول الله ﷺ لها، وأثر الإيمان في إزالتها وإحلال اليقين والاطمئنان محلها، وأرجو أن يُعيْنني الله على هذا في رسالة قادمة بحوله وقوته..

الإيمان نعمة عظمى ومكسب ضخم في حياة الإنسان، مكسب في تصوره وتفكيره وشعوره، ومكسب في خواطره وأعصابه وتطلعاته، ومكسب في علمه وسعيه وجهده وجهاده.. الإيمان مكسب في الحياة الدنيا، ومكسب في الحياة الآخرة..

الإيمان ـ كما قال الأستاذ الإمام سيد قطب ـ ، «هو كبرى المنن التي ينعم الله بها على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداءً لهذا العبد، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع..

إنها المنة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة، وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً عظيماً..

وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري ــ حين تستقر حقيقته في قلبه ــ هو سعة تصوره لهذا الوجود ولارتباطاته هو به، ولدوره هو فيه، وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله، وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقى الله، وأنسه بكل ما في الوجود من حوله، وأُنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود، وشعوره بقيمته وكرامته، وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى الله عنه، ويحقق الخير لهذا الوجود كله، بكل ما فيه، وكل من فيه..».

وبعد أن يشرح هذه المعاني شرحاً وافياً يعرج على مظهر نعمة الإيمان ومنته في الواقع الخارجي وأثره في العمل والجهد والحياة. فيقول: «والإيمان ــ بعد ــ قوة دافعة، وطاقة مجمِّعة، فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل، ولتحقق ذاتها في الواقع، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة، كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كله، وتدفعها في الطريق..».

ويعقب على حديثه عن نعمة الإيمان ومنته قائلاً: «وصدق الله العظيم، فماذا فقد من وجد الأنس بتلك الحقائق والمدركات، وتلك المعاني والمشاعر، وعاش بها ومعها، وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هداها؟ وماذا وجد من فقدها ولو تقلب في أعطاف النعيم، وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الإيمان، وتهتدي به إلى بارئها الكريم؟» [انظر كلام سيد القيم حول نعمة الإيمان في الظلال: ٦/ ٣٣٥ ــ ٣٣٥٤].

وانظر الكتاب القيم «الإيمان والحياة» للدكتور يوسف القرضاوي. حيث خصصه للحديث عن نعمة الإيمان. وتتبَع أثر هذا الإيمان الحي في

حياة الفرد وسجل ما يمنحه هذا الإيمان للإنسان من الكرامة والسعادة والسكينة والرضى والأمن والأمل والحب والثبات. ثم تتبع فيه أثر الإيمان في حياة المجتمع، وما يقدمه الإيمان ويضيفه إلى عالم الأخلاق مثل التضحية والقوة والرحمة، وما يضيفه الإيمان إلى عالم الإنتاج وعالم الإصلاح..

وهو كتاب قيم ورائع وجدير بالقراءة والفهم للوقوف على مظاهر نعمة الإيمان، وأثره في الحياة.

● ● ●

زينة الإيمان

الإيمان زينة جميلة حبيبة لطيفة، يهبها الله سبحانه لعباده المؤمنين، ويضفيها عليهم ويسدلها على كيانهم ويقذفها في قلوبهم، ومَن أجمل مِن الإيمان؟ ومَن أحلى وأطيب من الإيمان؟

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

الزينة ـ كما يقول الإمام الراغب ـ «الزينة الحقيقية هي ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله لا في الدنيا ولا في الآخرة. فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شين. والزينة ـ بالقول المجمل ـ ثلاث: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية كالمال والجاه.. فقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فهو من الزينة النفسية». [المفردات: ٢١٨].

واعتبار الإيمان زينة بهدف تحبيبه إلينا ودعوتنا إلى النظر إليه بهذا المنظار الجمالي البديع، والإيمان حقيقة زينة في ذاته، فهو جميل حبيب لطيف مرغوب فيه.. وهو يمنح هذه الزينة لصاحبه ويضفيها عليه، فيبدو هذا المؤمن جميلاً بديعاً لطيفاً، مقبولاً عند المؤمنين مرغوباً فيه بينهم.. وهذا ليس بسبب جماله الظاهري، وزركشته الشكلية ـ فقد لا يكون من

حيث الظاهر هكذا ـ ولكن بسبب جماله الإيماني وحسنه الأخلاقي ولطفه الاجتماعي.. وبمعنى آخر اكتسب هذا الجمال والزينة والقبول عند الناس من الإيمان الجميل الذي زينه الله في قلبه فانعكس على جوارحه وحياته..

إن القرآن لطيف حبيب معجز، متجدد في مذاقاته ولطائفه، مبدع في أساليبه وعباراته.. إنه هنا «يُلَوِّن» هذا الإيمان بالألوان المأنوسة اللطيفة، إنه «يُجَمِّل» هذا الإيمان في عيون وأذواق المؤمنين، إنه «يُزَيِّن» هذا الإيمان أمام المؤمنين.. ليُقبلوا عليه بلذة وانشراح.. إن القرآن هنا يخاطب الحاسة الفنية الجمالية عند المؤمنين ـ وهي أصيلة بارزة عند كل بني البشر ـ يخاطبها بلغة الجمال الفنية المحببة عن طريق التصوير الفني البديعة..

وهذه الآية فيها صدق فني جمالي ملحوظ ـ من خلال تلوين الإيمان وتجميله وتزيينه ـ وفيها صدق واقعي موجود، حيث يلحظ المؤمن البعد الواقعي العملي لزينة الإيمان المنعكسة على أخلاق المؤمن وحياته، إن كل ما في المؤمن جميل، لأنه ثمرة لزينة الإيمان التي استقرت في قلبه: عبادته ومعاملاته، طعامه وشرابه، لباسه وهندامه، منطقه وكلامه، جوارحه ولسانه، تصوراته وأفكاره، حركاته وسكناته، ليله ونهاره.. كلها ثمار جميلة لطيفة مطلوبة محبوبة لزينة الإيمان الحقيقية البديعة.

ولهذا كان الرسول ﷺ ـ يسأل الله أن يزينه بزينة الإيمان، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم حبب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين» [تفسير ابن كثير: ٢١٠ ومسند أحمد بن حنبل: ٤/ ٢٦٤].

والذي يلفت النظر في هذه الآية عدة أمور ذات دلالات لطيفة بديعة،

إذا أحسن المؤمن الالتفات لها وتذوقها ومعايشتها فستزداد صلته بربه ومحبته لإيمانه، ويتوثق ارتباطه بقرآنه وتدبره له.

منها: أن تحبيب الإيمان سابق على تزيينه في القلب، فالله حبب إليهم الإيمان أولاً ثم زينه في قلوبهم، وتحبيبه إليهم يعني أنه هدى نفوسهم إلى هذا الإيمان، وحرك قلوبهم لحبه وطلبه، فتوجهت إليه هذه القلوب راغبة محبة مشتاقة حريصة على طلبه وتحقيقه والحياة به، وهذا أمر طبيعي منطقي، فإن النفوس لن تطلب الشيء إلاَّ إذا أحبته القلوب وتفاعلت معه. فالمحبة سابقة على الرغبة والطلب والسعي، والله الذي «يعلم من خلق» وهو خبير بالمشاعر البشرية والانفعالات النفسية، حرك قلوب المؤمنين إلى الإيمان فأحبته، ثم رغبت به فتفاعلت معه وتزينت به..

ويطيب لي في معرض حديثي عن محبة الإيمان وتحبيبه إلى المؤمنين أن أورد معنى هذه الكلمة القرآنية «الحب». قال الإمام الراغب في مفرداته: «حَبيت فلاناً بمعنى أصبت حبة قلبه نحو شغفته وكبدته وفأدته.. وأحببت فلاناً جعلت قلبي مُعرضاً لحبه.. والمحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيراً، وهي على ثلاثة أوجه:

١ ــ محبة للذة كمحبة الرجل المرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان: ٨].

٢ ــ محبة للنفع كمحبة شيء ينتفع به، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف: ١٣].

٣ ــ محبة للفضل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم..» [المفردات: ١٠٥] وهذا يعني أنه لا بد أن نُعرِّض قلوبنا للإيمان حتى يصيبها ويتمكن منها، ولا بد أن نفتحها على كامل سعتها لهذا الإيمان حتى

يرسخ فيها ويقيم فيها ويملأها كلها، لا بد لقلب المؤمن أن يُفتح للإيمان بلذة ولهفة وشوق، حتى يمتلىء إيماناً، لا يجوز أن نترك جزءاً من هذا القلب بدون إيمان، ولا يجوز أن نجعل هذا الجزء لغير الإيمان.. بل إن الإيمان لن يقبل شريكاً معه في الإقامة بهذا القلب، لأن هذا الشريك لن يكون إلاَّ نقيضه وهو الشرك أو الكفر أو النفاق. وصدق الله القائل ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

ومنها: اعتبار الإيمان زينة، زينة لصاحبه، لن يبدو جميلاً بدونه، ولن يكون مقبولاً عند المؤمنين إذا تخلى عنه.. وهذه الزينة في القلب، وكونها في القلب ـ مركز القيادة والتأثر والانفعال والصلاح ـ دليل على ثباتها وأصالتها، وعلى تأثيرها وحيويتها، وعلى انعكاسها على الجوارح والحياة الخارجية.. إن القرآن يعيد تأصيل مصطلح «الزينة» ويصحح النظر إليه، والتعامل معه، ويعطيه «بُعْداً» إيمانياً ربانياً قرآنياً، وندرك أهمية هذا التصحيح والتعريف والاعتبار القرآني عندما نلتفت إلى نظرة الجاهليين المعاصرين لمصطلح «الزينة» وممارستهم له.. إذ يقصرونه على الزينة الخارجية الخاصة بالمظهر والشكل والهندام والأزياء والتقاليع و «الموضات».. وتَسْفُل أذواقهم في هذا، ويجعلونها إغراء وشهوات وإباحية ومجوناً وفتنة وتعرياً، ويزعمون هذا أناقة وزينة وجمالاً.

إن الزينة ما استقر في القلب صدقاً وحقاً وأصالة، وعاشه الإنسان خلقاً وفضيلة، وانعكس على حياته خيراً وطهراً.. ولن يكون هذا إلاَّ للإيمان وآثاره على السلوك والحياة..

ومنها: إن من لوازم محبة قلوب المؤمنين للإيمان، وثباته في قلوبهم وتزيينه لها.. أن تنفر هذه القلوب ـ ثم الجوارح والكيان كله ـ مما يناقض الإيمان ويضاده.. وهو الكفر والفسوق والعصيان، أن تكره

القلوب هذه النواقض التي تتنافى مع الإيمان.. ألا يكون فيها أي قبول لها، أو ميل نحوها، أو رضى بها، أو رغبة فيها.. إن هذه نتيجة وثمرة لمحبة الإيمان وزينته في القلب، فإذا لم تحصل هذه القلوب على هذه الثمرة والنتيجة فإنها لم تتعامل وتتفاعل مع المقدمة والأساس، ولم تحقق محبة الإيمان والتزين به.. وإن ادعت هذا فلا يخرج كلامها عن دائرة الزعم والادعاء الذي يخالفه الواقع المعاش.. ولهذا كم كان القرآن دقيقاً عندما رتب جزئيات الآية على هذا الترتيب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

ومنها: إن القرآن رتب على هذه المقدمات كلها نتيجة يقينية، وهي أن الذين أحبت قلوبهم الإيمان وتزينت به، وكرهت ما يخالفه من الكفر والفسوق والعصيان.. إن هؤلاء هم الراشدون؛ راشدون بسبب ما جعلوه من المقدمات الإيمانية الراشدة.. فمن سار في طريق الرشد فسيصل إليه ويتحقق به ويعيش فيه..

كما يوحي ترتيب الآية بإيحاء آخر وهو أن هذا هو طريق الرشد، فمن أراد أن يكون راشداً فلا بد أن يسير في طريقه الصحيح، ويحقق مقدماته الضرورية.. ومن سار في غير هذا الطريق فلن يحصل على الرشد ولن يكون راشداً.. وكم ضل أناس من البشرية طريق الرشد، فسلكوا طريق الضلال وهم ويزعمون أنها توصلهم إلى الرشد والهدى.. كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠]. وقال فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

ويوحي تركيب العبارة بإيحاء آخر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾

فالجملة الاسمية، وضمير الفصل «هم» واسم الفاعل وأل التعريف فيه، وغير ذلك من المؤكدات وصيغ القصر في الجملة، تحدد الرشد بهذه الحدود، وتقصره على هؤلاء الموصوفين فلا رشد في غير هذا، ولا راشدون غير هؤلاء.

إنها معادلة قرآنية صادقة يفهمها أهل القرآن ورجال الله وجنوده وأحبابه، محبة الإيمان تنتج تزيينه في القلوب، وهذا ينتج كره الكفر والفسوق والعصيان، وهذا هو الرشد الذي يكون صاحبه به راشداً رشيداً.

● ● ●

تبوؤ الإيمان

آية عجيبة في كتاب الله تحدثت عن الإيمان حديثاً عجيباً، وصوَّرته تصويراً لطيفاً، وجسَّمته تجسيماً جميلاً، وكان حديثها عن الإيمان في معرض ثنائها على الأنصار ـ العنصر الأساسي في القاعدة الإسلامية الصلبة، التي أقامها رسول الله ﷺ في المدينة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

لقد استقبل الأنصار في المدينة إخوانهم المهاجرين من مكة استقبالاً خاصاً، استقبالاً إيمانياً فريداً، عاملوهم بالمحبة والإيمان والإخاء وقدموا لهم ما يملكون، وآثروهم على أنفسهم مع حاجتهم لتلك الأشياء.. أنزلوهم قلوبهم قبل أن ينزلوهم بيوتهم، فوسعتهم قلوبهم الفسيحة قبل أن تسعهم بيوتهم المتواضعة..

وهذه الآية تريد أن تعلل لهذه الظاهرة الفريدة التي لم تتكرر بهذه الصورة الجماعية حتى بين المسلمين ـ وإن وجدت نماذج مسلمة مؤمنة اقتربت من هذه الصورة للأنصار، لكنها كانت نماذج فردية لم تتحول إلى ظاهرة اجتماعية ـ تريد هذه الآية أن تضع بين أيدي المسلمين المفتاح الذي يمكنهم استعماله ليكونوا قريبين من الأنصار في تلك الصورة، تريد

أن تطلعهم على السر ليحاولوه، وتريد أن تقدم لهم الصفات ليتصفوا بها. . والأحرى: تريد أن تقدم لهم الإيمان الذي دفع الأنصار إلى ذلك ليحققوه في قلوبهم، ويتبوَّؤوه في واقعهم. .

صفات الأنصار العظيمة في هذه الآية، أنهم تبوأوا الدار قبل المهاجرين فأسكنوهم قلوبهم، وصفت صدورهم من الأمراض فعاملوا المهاجرين بهذا الصفاء، وتمكن الإيثار منهم فقدموه للمهاجرين، وانتصروا على نفوسهم فوقوها الشح والبخل والمرض، وكانوا بكل ما فعلوه صادقين في إيمانهم وأخلاقهم وسلوكهم وحياتهم. .

إنها صفات الإيمان والخير: تبوؤ الإيمان، والمحبة، وسلامة الصدر، والأُخوة، والإيثار، والتزكية، والصدق. إنها عوامل الانتصار عند الأنصار، فأين الراغبون في الانتصار؟

ويلفتنا في الآية تعبيرها عن إيمان الأنصار بقولها: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أما تَبَوُّؤُ الدار فهو معروف، لكن هل الإيمان يُتبوأ؟ هل يمكن أن يكون داراً ومنزلاً لصاحبه؟.

مادة «بوَّأ» في القرآن الكريم وردت عشر مرات، وكلها في سياق المدح والثناء والخير، كلها في معرض بيان نعم الله على الناس مؤمنين وكافرين في الدنيا، ونعمه على المؤمنين في الجنة يوم القيامة، فهذه الكلمة لم ترد في سياق الذم ولا الإنكار، وهذا له دلالته لمن يتذوق أسلوب القرآن، ويتابع الرحلة مع الاستعمال القرآني للمصطلح الواحد وتصريفاته واشتقاقاته. .

نقرأ في القرآن قول صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ في معرض تنبيهه قومه إلى نعم الله عليهم، ومنها «تبوؤهم الأرض» في الإقامة

والسكنى ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

ونقرأ وصف القرآن لتهيئة الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين لغزوة أحد، ونعمة الله عليهم في هذا التبوؤ لهم على هذه الهيئة ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٢١].

ويشير القرآن إلى بحث وسعي موسى وهارون عليهما السلام لإسكان بني إسرائيل بمصر، وطلبهما لبيوت خاصة يتبوأها بنو إسرائيل ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ﴾ [يونس: ٨٧].

ويسجل نعمة الله على بني إسرائيل ـ بعد هلاك فرعون ـ في الأماكن التي أقاموا بها، ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [يونس: ٩٣].

ويتحدث عن يوسف عليه السلام بعدما أُعجب به الملك واسْتخلَصه لنفسه وجعَلَه على خزائن مصر، وتَبَوُّئِهِ في مصر وتمكُّنه منها، بفضل الله وإنعامه عليه وإحسانه إليه ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٦].

وإبراهيم عليه السلام، منَّ الله عليه بأن بوأ له مكان بيت الله الحرام، وهيأه له ودله عليه، وسهل له بناءه ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

ووعد الله المؤمنين المهاجرين في سبيل الله، الذين يتركون أوطانهم

من أجل الله، أن يُبوِّء لهم أماكن جديدة، وأن يهيئها لهم.. وإن هذه الأماكن الجديدة تحولت بفضل الله وتبوُّئهم لها، إلى حسنة خالصة صافية مجسمة ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل: ٤١].

أما المؤمنون في الجنة فقد وعدهم الله أن يُبَوِّئهم فيها غرفاً تجري من تحتها الأنهار، وأن يتنعموا بالإقامة فيها ويتلذذوا بنعيمها.. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

وهم هناك في الجنة يذكرون نعمة الله عليهم في هذا الفضل، وهذا التبوؤ، فيتوجهون إلى الله بالحمد والشكر والثناء ويقولون: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر: ٧٤].

والآية العاشرة هي التي نتحدث عنها عن تَبَوُّءِ الأنصار للدار والإيمان، وعن تَبَوُّءِ المؤمنين للإيمان.

وألحظ في هذه المواضع كلها أن التبوُّأ نعمة من الله على الناس.. وأن المؤمنين يدركون هذه النعمة، ويتفاعلون معها، ويتذوقونها ويعيشون في ظلالها.. وإنك لتلمح ملامح السعادة على وجوههم بهذه النعمة، وتلحظ علامات الرضى على محياهم وتسمع ألسنتهم تلهج بالحمد والثناء على الله على ما أنعم به عليهم.

لكن الأمر الملفت للنظر في المرات التسع التي ورد فيها التبوؤ أنه كان تبوءاً حسياً مادياً، في صورة منازل وأماكن في الدنيا، وفي صورة غرف ونعيم في الجنة..

أما تبوؤ الإيمان فإنه تبوؤ معنوي، وليس حسياً، وهذا المعنوي تحول إلى محسوس مجسم يدركه الإنسان ويلمحه!!

كيف يكون تبوؤ الإيمان؟ هل هو من باب المجاز والتشبيه؟ لقد وقف بعض المفسرين السابقين أمام الآية وأثاروا إشكالات حول تبوؤ الإيمان، وردوا عليها، وبحثوها بحثاً نظرياً، أفقدها الكثير من ظلالها وإيحاءاتها، ومن حياتها وحيويتها، ومن قوتها وتأثيرها.

وهذا مثال لإشكالاتهم ونظراتهم. قال الإمام القمي النيسابوري: «وها هنا سؤالان:

أحدهما: إنه لا يقال تبوأ الدار. **الثاني**: بتقدير التسليم، أن الأنصار ما تبوأوا الإيمان قبل المهاجرين؟.

والجواب عن الأول: أن المراد تبوأوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله: «علفتها تبناً وماءً بارداً..» أو هو مجاز من تمكنهم واستقامتهم على الإيمان، كأنهم جعلوه مستقراً لهم كالمدينة. أو هو مجاز بالنقصان، والمعنى تبوأوا دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من الثاني.

أو سمى المدينة بالإيمان لأنه مكان ظهور الإيمان. وهذا يؤول بالحقيقة إلى الوجه الذي تقدمه.

وعن الثاني: أن المراد من قبل هجرتهم، أو هو من تمام تبوؤ الدار. ولا شك أن الأنصار سبقوهم في ذلك، وإن لم يسبقوهم في الإيمان» [غرائب القرآن للقمي: ٢٨/ ٤٠ ــ ٤١].

ولا أجد ضرورة لهذه الأسئلة ولا لهذه الإجابات عليها، ولا ما يدعو إلى حمل تَبَوُّءِ الإيمان على المجاز الكامل أو الناقص ــ كما قالوا ــ ولا ما يدعو إلى صرفه عن حقيقته..

قال الإمام الراغب في مفرداته عن التبوؤ: «أصل البَواء مساواة الأجزاء في المكان، خلاف النَّبْوَة الذي هو منافاة الأجزاء. . يقال مكان بواء إذا لم يكن نابياً بنازله: وبوأت له مكاناً سويته فتبوأ». [المفردات للراغب: ٦٩] وحكى عن خلف الأحمر أنه قال في قولهم: «حياك الله وبياك أن أصله: بوأك منزلاً. فغُيِّر لازدواج الكلمة، كما غُيِّر في قولهم: أتيته الغدايا والعشايا» [المفردات: ٧٠].

فيكون معنى التبوُّءِ: هو تجهيز المكان وتهيئته وتسويته لصاحبه ليقيم فيه.

وتبوؤ الإيمان لا يعدو أن يكون كذلك، فإن الله يهيىء هذا الإيمان لصاحبه ويجهزه له ويسويه ويمهده ليقيم فيه، ويحتمي داخله. .

إن الآية تستخدم طريقة التصوير الفني ــ تلك الطريقة القرآنية المفضلة في التعبير عن أغراضه ــ في التعبير عن الإيمان وتأثيره في صاحبه وتمكنه منه وآثاره عليه، وتستخدم هذه الطريقة وهي تعلل سر عمل الأنصار وتصرفهم مع إخوانهم المهاجرين. .

إنها تستخدم طريقة التجسيم الفني والتخييل الحسي ــ وهما قاعدتان أساسيتان من قواعد التصوير الفني في القرآن ــ في الحديث عن الإيمان وتصويره للمؤمنين.

إن الإيمان أمر معنوي وليس مادياً محسوساً ملموساً، ولكن الآية جسَّمت لنا هذا الإيمان المعنوي في صورة مادية محسوسة ملموسة ــ من باب التصوير الحي المؤثر وليس من قبيل المجاز الكامل أو الناقص كما قال السابقون ــ إن هذا الإيمان تحول في الآية إلى بيت متناسق بديع جميل، مهيأ للسكنى، ومجهز ومعد لاستقبال ساكنيه، الذين سيجدون فيه طيب الإقامة والسعادة والراحة.

وبعدما جُسم الإيمان في هذه الصورة خَيلت لنا الآية حركة القادمين إليه بتخييل حسي بديع.. ها هم قادمون إليه.. ها هم قد تبوءوه.. وهو لهم نعم الإقامة والمُبَوّأ..

هذه الصورة اللطيفة التي تعرضها الآية لتَبَوُّءِ الإيمان، توفر لها جمال فني ساحر، وصدق فني ملحوظ، وليس هذا فقط، ولكنها توفر لها صدق واقعي، ووجود عملي، وبُعد حياتي.. لقد انطبقت على أناس في عالم الواقع. كل من نظر إليهم وإلى أعمالهم وإلى أخلاقهم يخرج بهذه النتيجة: إنهم تبوأوا الإيمان، إن الإيمان أصبح لهم داراً ومنزلاً، إنهم أقاموا فيه فسعدوا وصلحوا وأصلحوا. وأين ستقيم قلوبهم إن لم تقم في بيت الإيمان؟ وأين سيعيشون إن لم يعيشوا في ظلال الإيمان؟.

قال سيد قطب: «والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم» أي دار الهجرة، يثرب مدينة الرسول ﷺ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، كما تبوأوا فيها الإيمان، وكأنه منزل لهم ودار. وهو تعبير ذو ظلال، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان. لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويثوبون إليه ويطمئنون له، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار..» [الظلال: ٦/ ٣٥٢٦].

إننا ندعو المؤمنين إلى أن يقفوا طويلاً أمام الصورة العجيبة التي ترسمها هذه الآية وتعرضها لتبوُّءِ الإيمان، ندعوهم أن يقفوا أمامها، وأن يسعوا جاهدين للتحقق بها..

إن هذا الزمن الذي نعيش فيه لا ننجو فيه من مكائد الأعداء ومصايد الشيطان إلاّ بتبوُّءِ الإيمان، ولا ننجح في تربية نفوسنا وتزكية أخلاقنا واستقامة حياتنا إلاّ بتبوُّءِ الإيمان، ولا نستعلي فيه على الباطل ولا نثبت فيه

على الحق ولا نصدع فيه بالأوامر إلاّ بتبوُّءِ الإيمان، ولا تستقيم حياتنا، ولا تثبت على طريق الله أقدامنا ولا ننتصر على أعدائنا ولا نحقق الوجود الحي المؤثر لإيماننا وإسلامنا وديننا إلاّ بأن نتبوأ الإيمان.. وفي النهاية لن ننال رضوانِ الله ورحمته، ولن ندخل جنته ونتلذذ بنعيمها إلاّ بأن نتبوأ الإيمان في دنيانا.

لا بد أن نجعل الإيمان لنا داراً ومنزلاً، لا بد أن نحوله من معانٍ نظرية مجردة باردة إلى بيت للإقامة السعيدة، ومكان للحياة الهانئة، ومصدر للظلال الوريفة، لا بد أن نجعل الإيمان سكناً تسكن إليه أرواحنا، وتقيم فيه قلوبنا، وتهدأ فيه نفوسنا، وتطمئن فيه مشاعرنا، ويثوب إليه كياننا..

لا بد أن نجعل الإيمان بيتاً نتبوؤه ونأوي إليه.. وخيمة نستصحبها في حياتنا وحركاتنا وتنقلاتنا، ولباساً نرتديه ولا نتخلى عنه في لحظة من لحظات حياتنا، ونوراً يكون معنا دائماً ليضيء لنا الطريق ويبدد لنا الظلام فيها، ويبصرنا بدروبها ومنحنياتها، ويحذرنا من مطباتها وأخطارها ومفاجآتها، ويكشف لنا شياطين الإنس والجن الكامنين فيها لاصطيادنا، ويرينا شباكهم ومصائدهم فيها..

لا بد أن نجعل الإيمان ظلالاً نعيش فيها في كل لحظة من حياتنا، نفيء إليها في صحراء الجاهلية الحارقة، لنجد عندها الأمن والراحة والطمأنينة والانشراح.

وطالما أقمنا في بيت الإيمان فإننا من الشياطين في أمان، وطالما تبوأنا هذا الإيمان في حياتنا فإن الباطل والمنكر في معزل عنا، وطالما عشنا في ظلال الإيمان فلن تضيرنا الجاهلية ونارها وحرها وسمومها.

إن شياطين الإنس والجن عاجزة عن الاقتراب منا ونحن في دار الإيمان، لأن دار الإيمان التي نقيم فيها أضاءتها أنوار الإيمان والهدى، والشياطين لا يجرءون على الحياة في النور، لأنه يحرقهم ويؤذيهم ويكشفهم.

إنهم لا يتقنون الشيطنة والمكر والوسوسة إلاَّ في الظلام، ولا يذْعون الناس إلاَّ من خلال الظلمات، ولا يوقعون فيهم إلاَّ وسط الظلمات.. ولذلك يهربون من النور والضياء.. إننا لن ننجو من الشياطين إلاَّ إذا آوينا إلى بيت الإيمان، ولن نكشفهم إلاَّ إذا سلطنا عليهم من داخل هذا البيت أنوار الإيمان.

إن هذه الآية العجيبة تريد أن تدعونا إلى صمام الأمان في مواجهتنا لشياطين الإنس والجن، ألا وهو الإقامة في بيت الإيمان، وتبوؤ دار الإيمان.. فهذه الدار مقامة فأين الساكنون فيها؟ وهذا البيت جاهز فأين القاطنون فيه؟ وهذا المنزل قد أُعد وجُهز وهُيِّىء فأين الذين يتبوؤونه؟

هذا: وإن الشياطين عندما يعجزون عن ولوج بيت الإيمان، ويفشلون في الإيقاع بالمؤمن طالما هو فيه، يقفون كالكلاب الضالة على باب البيت، يقفون باستمرار لا يملون الوقوف ولا يقصرونه في المراقبة.. إنهم يراقبون ساكن البيت، ويتحينون فرصة خروجه منه، وإذا خرج المؤمن من بيت الإيمان، وغادر حصن الأمان فإن الشيطان بانتظاره، إنه يأخذ بيده ورجله لحظة خروجه فيزله عن طريق الهدى إلى هاوية المعصية، ويفقده نور الهداية ليغرقه في ظلام الخطيئة، ويحرمه ظلال الإيمان ليلقيه في صحراء المنكر وسراب الأوهام..

فلماذا نغادر هذا المنزل المبارك؟ ولماذا نخرج من هذا الحمى الآمن؟

وصدق الله العظيم الذي يقول: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

والذي يقول: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

• • •

شجـرة الإيمـان

الإيمان الثابت الراسخ النامي، الذي يرسخ جذوره في قلب المؤمن، ويتمكن منه، ويثمر ثماراً يانعة هي الطاعات والحسنات، ويعطي ظلالاً وارفة هي الطمأنينة والرضى والسكينة.. هذا الإيمان في التصوير القرآني وتمثيله المعجز شجرة.. شجرة ثابتة راسخة حية مثمرة، يتعاهدها صاحبها باستمرار، ويلاحظ نموها ونماءها باستمرار، ويجني من ثمارها ما يجني باستمرار..

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ــ ٢٦].

هذان مثالان ضربهما الله لنا في القرآن، لكل من الكفر والإيمان، وقرَّب لنا أمرهما في صورة شاخصة حية مؤثرة معبرة، ودعانا إلى تدبر هذين المثلين، وتملِّي هاتين الصورتين، لنعرف طبيعة كل من الإيمان والكفر.. وبين لنا العلة من إيرادهما على هذه الصورة ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إنهما ما سيقا إلاَّ للتذكر والتدبر والاتعاظ، فلماذا لا نُقبل عليهما بهذا المنهج ووفق هذا الطريق، ونستخرج ما فيهما من حقائق ومقررات يقينية ثابتة في عالم الإيمان والعمل والحياة..؟.

الإيمان في هذه الصورة القرآنية ثابت راسخ قوي متين، إنه شجرة طيبة خيِّرة نافعة، أصلها ثابت، جذورها ضاربة في أعماق الأرض، وهكذا الإيمان في قلب المؤمن.. فرعها في السماء ممتد مرتفع عال، وأغصانها الخضراء تملأ الآفاق، وهكذا الإيمان في نموه وحياته وحيويته، في صورته الخارجية المتمثلة في سلوك المؤمن وصِلاته وارتباطاته.. وهذه الشجرة تنشر ظلالها الوارفة وتمدها ليستظل بها المكدودون والمتعبون، ويستروح فيها الضاربون المسافرون، ويجدون فيها الراحة والأُنس والسعادة والهناء.. وهكذا الإيمان بظلاله التي يلقيها في حياة المؤمن، وبيته الذي يشيده ليقيم فيه المؤمن ويتبوأه بطمأنينة وسكينة وانشراح.. وهذه الشجرة كريمة منتجة ، تنتج ثمارها اليانعة، وتؤتي أكلها كل حين، وتمنحه للراغبين والطالبين، وهكذا الإيمان في نمائه وثماره، إنه يثمر في حياة صاحبه العمل الصالح والطاعة الخيرة والعطاء الإيماني الذي يسعد حياته وحياة ومن حوله..

ولهذا نلحظ من خلال هذه الصورة القرآنية كل مظاهر الموافقة والانسجام والتناسق والارتباط بين الشجرة بهذه المواصفات وبين الإيمان كما يعرضه ويقرره القرآن..

وهذا ما فهمه السلف الصالح من هذه الصورة، فهموا من الشجرة أنها شجرة الإيمان، ومن أغصانها أنها الالتزام والطاعة لله، ومن ثمارها وأُكُلها العبادات والحسنات.. وأنها فيها حلاوة الإيمان كما في ثمر هذه الشجرة حلاوة في الطعم للإنسان..

روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كلمة طيبة: شهادة أن لا إلّه إلاَّ الله، كشجرة طيبة: وهو المؤمن، أصلها ثابت: لا إلّه

إلاَّ الله في قلب المؤمن، وفرعها في السماء: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء..».

وروى عن الربيع بن أنس قال: هذا مَثَلُ الإيمان. فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصله الثابت الذي لا يزول الإخلاص لله، وفرعه في السماء خشية الله..» [١٦/ ٥٦٧ ــ ٥٦٨].

وهذا ما رجحه الطبري ــ وهو لدينا الراجح أيضاً ــ قال: «ويعني بالطيبة: الإيمان به جل ثناؤه كشجرة طيبة الثمرة، وترك ذكر الثمرة استغناءً بمعرفة السامعين عن ذكرها بذكر الشجرة» [١٦/ ٥٦٧].

وقد اعتبر السلف الصالح أُكُل الشجرة الوارد في الآية ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ اعتبروه هو ثمار الإيمان من الأعمال الصالحة التي يقدمها المؤمن كل صباح ومساء.

أورد الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال: المؤمن يذكر الله كل ساعة من الليل والنهار». [١٦/ ٥٧٦].

كما أورد قول الضحاك: «تؤتي أكلها كل حين: تخرج ثمرتها كل حين. وهذا مثل المؤمن يعمل كل حين، كل ساعة من الليل وكل ساعة من النهار، وبالشتاء والصيف، بطاعة الله» [١٦/ ٥٧٧].

وقد رجح الإمام الطبري هذا الرأي بقوله: (عنى بالحين في هذا الموضع، غدوة وعشية وكل ساعة، لأن الله تعالى ذكره ضَرَبَ ما تؤتي هذه الشجرة كل حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلاً. ولا شك أن المؤمن يرفع له إلى الله في كل يوم صالح من العمل والقول، لا في كل سنة، ولا في كل ستة شهر، ولا في كل شهرين» [١٦/ ٥٨٢].

هذا وقد شبه رسول الله ﷺ المؤمن بالنخلة، من حيث قوتها وثبات أصلها والانتفاع بكل ما فيها واستمرار عطائها وثمرها، وهكذا المؤمن في إيمانه وثباته وعطائه وعمله ونفعه لعباد الله.

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وأنها مِثْل المسلم فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ــ ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة. فحدثْتُ أبي بما وقع في نفسي فقال: لأن تكون قلتها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا».

ورسول الله ﷺ ينطلق من الآية في هذه الصورة التي يعرضها، والسؤال الذي يطرحه، بل هو في هذا يفسر الآية الكريمة تفسيراً تصويرياً تمثيلياً، يستخدم فيه وسائل الإيضاح ليقربها إلى تصور المسلمين.

ولذلك أورد الإمام البخاري هذا الحديث في كتاب التفسير أثناء تفسيره لهذه الآية من سورة إبراهيم.. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل المسلم، لا يتحاتُّ ورقها ولا ولا ولا، تُؤتي أكلها كل حين ــ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم ــ فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: هي النخلة.. فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم. قال: لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم وأقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا..».

وهذا ما فهمه المفسرون والمحدثون من الآية، وتمثيلها لشجرة

الإيمـان وشجـرة الكفـر. . فقـد أورد ابـن حجـر فـي الفتـح قـول الشيـخ أبـي محمد بن أبـي جمرة: «إن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ فالكلمة هي كلمة الإخلاص والشجرة أصل الإيمان، وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهي، وورقها ما يهم به المؤمن من الخير، وثمرها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر جني الثمرة، وغاية كماله تناهي النضج، وبه تظهر حلاوتها. .» [فتح الباري: ١/ ٥٧].

شجرة الإيمان قوية ثابتة، غَرَسَ المؤمن بذرتها المباركة في قلبه الخصب، وتعاهدها بالرعاية والعناية والاهتمام، فضربت بجذورها في أعماق قلبه، وتخللت شغافه ونواحيه وجوانبه، فثبتت وقويت ورسخت. . واستمدت من هذا القلب غذاءها فنمت فيه وترعرعت، وأطلقت أغصانها وفروعها في كيان هذا المؤمن وحواسه وجوارحه، وظللت له حياته، فعاش فيها آمناً واثقاً مطمئناً. . وراحت هذه الشجرة تنتج ثمارها اليانعة المباركة، ألا وهي أعمال المؤمن وأقواله وخطواته واهتماماته، إنها كلها خيرات عميمة يقدمها المؤمن كل حين وساعة ولحظة ينفع بها عباد الله، ويدخرها لنفسه عند الله. . وشجرة الإيمان هذه ثابتة صامدة لا تزعزعها الأعاصير والعواصف، ولا تضعفها الفتن والأهواء، ولا تقتلعها شياطين الإنس والجن. .

قال سيد قطب: «إن الكلمة الطيبة ــ كلمة الحق ــ كالشجرة الطيبة، ثابتة سامقة مثمرة. . ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان من عل ــ وإن خُيِّل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان ــ سامقة متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل ــ وإن خيل إلى البعض أحياناً أن الشر يزحمها في

الفضاء ــ مثمرة لا ينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد آن. .

وإن الكلمة الخبيثة ــ كلمة الباطل ــ كالشجرة الخبيثة، قد تهيج وتتعالى وتتشابك، ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى. . ولكنها تظل نافشة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى كأنها على وجه الأرض. . وما هي إلاَّ فترة ثم تُجتث من فوق الأرض، فلا قرار لها ولا بقاء. .

ليس هذا وذلك مجرد مثل يُضرب، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع، إنما هو الواقع في الحياة. . ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان.

والخير الأصيل لا يموت ولا يذوي مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق. . والشر كذلك لا يعيش إلاَّ ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به ــ فقلما يوجد الشر الخالص ــ وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال. .

إن الخير بخير، وإن الشر بشر» [الظلال: ٤/٢٠٩٨ ــ ٢٠٩٩].

الإيمان شجرة مباركة تبحث عن قلوب لتستقر بها وتعطي عطاءها من خلالها. . فهل نجهز قلوبنا ونهيؤها ونغرسها فيها؟ وهل نرعاها ونحفظها ونمنع عنها البغاة والمعتدين والمخربين؟ وهل نمدها ونغذيها بذكر الله وعبادته وطاعته حتى تنمو وتكبر وتنتج وتثمر؟ وهل نسعد بتفيّؤ ظلالها وجني ثمارها؟. . إن الأمر يحتاج إلى مجاهدة وتربية، يحتاج إلى إخلاص القلوب لله وصدق توجهها إليه وتوكلها عليه. . ورحم الله الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان حيث يقول:

«القلوب أربعة:

قلب أغلف: فذلك قلب الكافر.

وقلب مصفح: فذلك قلب المنافق.

وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن.

وقلب فيه نفاق وإيمان، فالإيمان كشجرة يمدها ماء طيب، والنفاق كقرحة يمدها قيح ودم فأيهما غلب غلب» [حلية الأولياء: ١/٢٧٦].

• • •

ثمـرة الإيمـان

الإيمان شجرة مباركة مثمرة تقدم ثمراً شهياً نافعاً.

ثمر هذه الشجرة هو العمل الصالح الذي يقوم به صاحبه، إن الشجرة لا بد منها للثمرة، لأنه لا يُتصور ثمرة بدون شجرة ــ اللهم إلاَّ أن تكون ثمرة اصطناعية من بدع المدنية المعاصرة، التي لا ترى فيها خيراً ولا تذوق لها طعماً ولا تشم لها رائحة ولا تسمن ولا تغني من جوع ــ ولذلك الأعمال الطيبة التي يقوم بها الماديون الجاهليون الكافرون هي ثمر صناعي، لم ينتج عن شجرة خضراء حية، ولهذا هو ميت لا حياة فيه ولا حراك، ولهذا هو مرفوض عند الله لأنه لم يكن من نتاج شجرة الإيمان الوارفة المباركة، ولم يتصل بالإيمان في القلب، وكل عمل بدون إيمان لا يقبله الله. . إن الأعمال التي يقوم بها الكفار في الدنيا، وإن الأخلاق الحسنة التي يتخلقون فيها، وإن النفقات والمساعدات التي يقدمونها غير مقبولة عند الله، لأنها لم تنتج عن إيمان، ولم تتولد عن إيمان، ولم تكن ثمرة للإيمان. .

وفي هذه الأعمال يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة قائلاً: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . .﴾ [آل عمران: ١١٧]. و ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨].

وكما أنه لا يقبل عمل لم ينتج عن إيمان ولم يكن ثمرة له، كذلك لا يستفاد من شجر غير مثمر في الغذاء والحياة. إن الشجرة غير المثمرة قد يستفاد من ظلها أو من أوراقها أو من أغصانها أو من أخشابها، لكنها لا تقدم ثمراً ولا غذاءً ولا نماءً لصاحبها، ولو جلس في ظلها أياماً وشهوراً فهل يشبع من جوع؟

وهكذا الإيمان بدون عمل.. إنه شجرة بدون ثمرة.. ما أكثر الذين يدّعون الإيمان الأصيل الراسخ ومع ذلك لا يعملون وِفقه، وهم في هذه الدعوى واهمون، يظنون أنهم سابقون ــ في هذا الإيمان الجامد الهزيل ــ المؤمنين العاملين الذين أنتج إيمانهم ثمراً وعملاً واستقامة وحركة وجهاداً..

إن الإيمان بدون عمل قد ينفع صاحبه يوم القيامة آخر الأمر، بمعنى أنه يدخل النار ويعذب فيها ما شاء الله، ويمكث فيها ما قدر له الله جزاء تقصيره في الواجبات وارتكابه للمحرمات؛ ولكنه لا يخلد في النار مثل الكافر والمنافق، وإنما يخرج منها بإذن الله، طالما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.. فلا يركننْ أحد إلى هذا ويقول: وهذا فوز فلأكن مثله أليس إلى الجنة في النهاية؟ لأنه على خطر عظيم: فمن يضمن له أن يموت على الإيمان وأن يبقى عند موته في قلبه مثقال ذرة من إيمان، إن معصية الرحمن نذير سوء الخاتمة والموت على الكفر، وعندها يخلد في النار مع الخالدين.. وهبْهُ مات على الإيمان وشاء الله أن يعذبه لتقصيره وذنوبه فمن هو الذي يتحمل عذاب النار؟ ويصبر على ألوانه وصنوفه؟ ويستطيع هذا لحظات أو ساعات فضلاً عن السنوات.. ثم هل يستوي هذا الذي يكون آخر من يدخل الجنة مع من كان في درجاتها العليا، مع السابقين الأولين؟؟

العمل الصالح هو الثمرة المباركة للإيمان، وهذا العمل قد يصعب على النفس في أول الأمر ويحتاج إلى جهد ومجاهدة، وصبر ومراقبة، ويقظة ومحاسبة.. لكنه يسهل على النفس بعد ذلك، ويكون عليها هيناً ليناً، وخلقاً مستمراً، وحالة دائمة.. ولا غرابة في هذا.. فإن من زرع شجرة يعتني بها ويتعاهدها ويحرسها ويخدمها.. إنه يستمر شهوراً وسنوات في خدمتها وعنايتها وحراستها ومراقبتها، ويبذل في هذا جهداً كبيراً بالغاً.. وبعد ذلك تمنحه الثمر الداني، وتقدمه له هدية عظمى، وشكراً طيباً.. إنها تبادله عطاء بعطاء، وخدمة بخدمة، وكم يجد لذة في قطف هذا الثمر وتذوقه والاستمتاع به.. تنسيه مشقة الخدمة والعناية، وتزيل عنه التعب والإرهاق الذي وجده قبل ذلك.. وتستمر الشجرة في عطائها، وفي تقديم هداياها لصاحبها إلى أن يحين عليها أمر ربها..

وهكذا الإيمان فكم يبذل المؤمن جهده في تربية نفسه وأخذها بالجد والهمة والعزيمة، ومجاهدة الشهوات والمعاصي والشياطين والمفسدين، والاستعلاء على جواذب ونداءات وإغراءات الذنوب والمنكرات.. إنه يبذل جهداً وصبراً ومصابرة ومجاهدة ومراقبة ويقظة.. ثم ماذا بعد ذلك؟. تُحبب إليه الطاعات، وتَسهل عليه الحسنات، وينسّق بينها وبين الإيمان والقلب والنفس والشعور والبدن، وتجتمع هذه كلها على هذه الحقيقة، وتتناغم إيقاعاتها، وتتقارب خطواتها، وتتناسق وتستقيم.. عندها تكون الطاعة له خُلقاً دائماً وحالة مستمرة، وظلالاً مباركة، وبيئة نامية.. تكون مثل الماء للسمك، ومثل الهواء للإنسان.

وفي المقابل ينفر من المعصية ويكرهها، ولا يطيق لها ممارسة ولا سماعاً، إنه يُخْرجها من قلبه وتصوره وفكره وشعوره وخياله وكيانه.. ثم يخرجها من حياته ودنياه وواقعه وممارساته..

هذا المؤمن عندما تثمر فيه شجرة الإيمان ثمرها تسره الطاعة ويفرح بها، وتسوؤه المعصية ويحزن منها، يحب الطاعة ويستلذها، ويكره المعصية ويستقبحها.. يشتاق للطاعة ويريدها، ويكره المعصية وينفر منها.. ويصدق عليه قول الله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات: ٧]. ويصدق عليه قول الرسول ﷺ: «إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن».

● ● ●

حـلاوة الإيمـان

الإيمـان محبب إلى نفس المؤمـن وقلبـه وشعوره، ولـه حلاوة طيبة مرغوب فيها، يمكن أن تذاق، وله طعم حلو لذيذ يمكن أن يجده المؤمن ويذوقه ويسعد به.. ولكن هذه الحلاوة لا بد لها من طريق للوصول إليها، ومن أسباب للأخذ بها، ومن مقدمات للحصول عليها..

هل نحن نجد لإيماننا حلاوة؟ وهل نتذوق له طعماً؟ وهل نسلك السبيل الموصل إليه؟ أم أننا لا ننظر له بهذا المنظار، ولا نتعامل معه على هذا الأساس، ونكتفي بمجرد القول بأننا مؤمنون..

إن رسولنا محمداً عليه الصلاة والسلام يقدم لنا الإيمان تقديماً لطيفاً محبباً إلى النفوس، ويعرضه لنا عرضاً جميلاً لذيذاً.. إن الإيمان ــ في بيـان رسـول الله ﷺ ــ يمكـن أن يـذاق، وأن يجـد المتـذوق لـه طعمـاً سـائغاً حلواً، وحلاوة لذيذة مطلوبة.. إذا ذاقها سيبقى يطلبها ويشتاق إليها، وإذا عاش بها ستتحول حياته إلى سعادة هانئة، وفرحة غامرة.. إنها ستحلو بحلاوة الإيمان وتزكو بطعم الإيمان..

روى البخـاري ومسلـم عـن أنـس بـن مـالـك، رضـي الله عنـه عـن النبــي ﷺ قـال: «ثـلاث مـن كـن فيـه وجـد حـلاوة الإيمـان: أن يكـون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار..».

وهذا حديث لطيف، يحوي دلالات عديدة، ويصور لنا الإيمان تصويراً محبباً، ويدلنا على الأسباب التي نتوصل بها إلى هذا الإيمان الحلو اللذيذ الجميل..

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: «هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام، قال العلماء رحمهم الله تعالى: معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات، في رضى الله عز وجل ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا..

ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته، وترك مخالفته، وكذلك محبة رسوله ﷺ». [صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ١٣].

والرسول ﷺ يستخدم طريقة التصوير الفني الحبيبة الساحرة ــ وهي طريقة القرآن المفضلة في التعبير عن مختلف أغراضه وموضوعاته ــ في الحديث عن الإيمان، إن الإيمان ــ وهو الأمر المعنوي المجرد ــ يقدَّم في هذا الحديث في صورة مجسمة محسوسة، يقدَّم شيئاً مادياً مطلوباً، مرغوباً، يمكن أن يُذاق وأن توجَد له حلاوة في المذاق..

وقد نظر السابقون في الحديث على ضوء مصطلحات علم البيان والبلاغة لديهم، وحللوه على أساسها. قال ابن حجر في الفتح: وفي قوله: «حلاوة الإيمان» استعارة تخييلية. شبّه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه.. وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح، لأن المريض الصفراوي يجد طعم العسل مراً، والصحيح يذوق حلاوته على ما هي عليه، وكلما نقصت الصحة شيئاً ما نقص ذوقه بقدر ذلك..» [فتح الباري: ١/ ٥٦].

ونحن لا نفضل العدول عن مصطلح التصوير إلى مصطلح

«الاستعارة»، ولا نرى أن نبقى مستعْبَدين لمصطلحات خاصة تواضع عليها علماء سابقون وارتضوها، ونجيز لأهل زماننا الإتيان بمصطلحات جديدة في عالم البيان والأدب والبلاغة، كما أجاز السابقون لأنفسهم الاجتهاد في القول بتلك المصطلحات.

ولهذا نحلل الحديث وما فيه من صورة تخييلية لطيفة على ضوء طريقة التصوير الفني السهلة الميسرة..

قال الدكتور محمد الصباغ في كتابه القيم «التصوير الفني في الحديث النبوي» أثناء بيانه التصوير الفني الساحر في هذا الحديث: «وفي النص صورة أخرى قائمة على التشبيه وهي قوله: وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

فإذا كانت كراهيته للعودة في الكفر مثل كراهيته أن يقذف في النار كان بسبب ذلك من الذين يجدون حلاوة الإيمان. والصورة فيها تناسق رائع، فالدخول في الكفر دخول في النار، والخروج منه إنقاذ من الله» [التصوير الفني في الحديث النبوي: ٢٨٧].

ولقد دلنا رسول الله عليه الصلاة والسلام على الطريق التي نحصِّل فيها حلاوة الإيمان ونتذوقها، ووضع بين أيدينا الأسباب التي تحقق لنا هذا، وأطلعنا على شروط ضرورية لذلك..

إنها ثلاثة أشياء أساسية وأمور ضرورية ومقدمات تمهيدية للوصول إلى حلاوة الإيمان: محبة الله ورسوله محبة خاصة لا تماثلها أو تقاربها محبة أي محبوب آخر «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»..

ومحبة المحبوبين لله وفي الله وهي من لوازم محبة الله «وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله». ومحبة الإيمان والإسلام محبة خاصة كذلك

بحيث يختارهما ويبقى دائراً معهما، ويكره الكفر كراهية تستغرق كل كيانه، وأن يتبرأ منه براءة نافذة دائمة، وأن يجعل الكفر مقترناً عنده بالإلقاء في النار، وكيف يلقي عاقل نفسه في النار؟

وإذا نظرنا في الأمور الثلاثة فإنها ترجع في حقيقتها إلى واحد: وهو حب الله والحب في الله، فحب الله إذا تمكن من القلب أحب كل ما يحبه الله، وكل ما يقربه من الله، وابتعد عن كل ما يبعده عن الله، ويمنع عنه حب الله.. ومن حب الله حب رسوله، ومن حب الله حب دينه وشرعه.

• • •

طعم الإيمان

كما أن الإيمان له حلاوة لذيذة ـ كما مر معنا في المبحث السابق ـ كذلك هذا الإيمان له طعم لذيذ حلو طيب، يجده المؤمن في قلبه وفي كيانه، ويتذوقه بقلبه وكيانه، ويستلذه بقلبه وكيانه، وقد قدم لنا رسول الله ﷺ هذا الإيمان بطعمه الحلو اللذيذ، ودعانا إلى تذوقه والإقبال عليه بشوق ورغبة.

روى مسلم في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً».

وقدم لنا الإيمان بطريقة التصوير الفني العجيبة، إن له طعماً، وإنه يمكن أن يذاق هذا الطعم. قال الدكتور محمد الصباغ: «وفي ذلك تصوير المعاني بأمور مُحَسَّة، فالإيمان أمر معنوي ولكنه يبدو هنا في النص شيئاً طيباً يذوق طعمَه أناس معينون». [التصوير الفني في الحديث النبوي: ٢٧٧] ورضاه بتلك الأمور الثلاثة معناه قناعته بها واكتفاؤه بها وعدم طلب غيرها معها.

قال النووي في شرح الحديث: «معنى الحديث: لم يطلب غير الله تعالى، ولم يسع في غير طريق الإسلام، ولم يسلك إلاَّ ما يوافق شريعة محمد ﷺ. . ولا شك في أن مَنْ كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه. .

وقال القاضي عياض رحمه الله: معنى الحديث: صح إيمانه، واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه، لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه، لأن من رضي أمراً سهل عليه، فكذلك المؤمن إذا دخل قلبَه الإيمانُ سهَّلَ عليه طاعات الله تعالى ولذت له..» [شرح النووي: ٢/٢].

إنها أسباب ثلاثة لتذوق طعم الإيمان والحياة به: الرضا بالله رباً، والرضا بالإسلام ديناً، والرضا بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً..

ولا بد للمؤمن أن يقف طويلاً أمام هذا الحديث، وأن يردده صباح مساء، وأن يعيشه عملياً في كل لحظة من حياته.. إن الإيمان والإسلام لا يوجَدان ولا يتحققان ولا يُتَذوقان إلاَّ بالرضى.. الرضى والقبول والموافقة والقناعة والاكتفاء والغنى..

إن الإنسان لن يدرك حقيقة الشيء إلاَّ إذا رضي به، ولن يعرف قيمته ولن يسعد به إلاَّ إذا قنع به.. وهذا ينطبق على كل شيء في الحياة..

وهذا الإيمان الحبيب العظيم الغالي، لا بد أن ننظر له بعين الرضى، وأن نتعامل معه من خلال قبوله والقناعة به، وأن نعيش به ومعه بشعور الاكتفاء به والغنى به، وأن نواجه الناس ونحن كلنا استعلاء بالإيمان، وقناعة بالإيمان، وأُنساً بالإيمان، وطمأنينة بالإيمان..

ونحن المسلمون في هذا الزمان أحوج ما نكون إلى أن نعيش هذا الحديث، ونحقق في قلوبنا وكياننا ووجودنا وحياتنا هذه الأمور الثلاثة التي نذوق فيها طعم الإيمان.. أحوج ما نكون إلى ذلك لأن هذا عصر التزوير والافتراء، وعصر التمويه والزخرفة، وعصر التضليل والشيطنة، وعصر الشبهات والدعاية.. إن شياطين الإنس أعداء الحق يقدمون الله ورسوله إلى

الناس تقديماً منفراً، ويقدمون رجاله وأهله وجنوده تقديماً مرذولاً في صورة مزرية منفرة بشعة ممقوتة، ويعرضون الإسلام وقيمه ومبادئه أمام عيونهم عرضاً بغيضاً مقيتاً. إنهم يوجدون في نفوس الناس كل عوامل البغض والكراهية والنفور من الله ورسوله ودينه.. الله سبحانه في تقديم الشياطين يريد الشر بالناس ويحقد عليهم وينتقم منهم، يوقعهم في المصائب والآلام، ويُكرههم على المعاصي والذنوب ويحرقهم بالنار، وليس عنده إلاّ النار.. والرسول ﷺ في تقديم هؤلاء ظالم انتهازي أناني شهواني.. وجنود الإسلام ودعاته مدمرون منفرون متشددون إرهابيون، أعداء المعرفة والتقدم والسماحة والخير والإنسانية، تمتلىء قلوبهم بالحقد والكره والبغض لبني البشر.. أما الإسلام فإنه دين الجمود والتأخر والرجعية والقيود والأغلال، يضيق بالعلم والمعرفة والفرح والسرور.. والتزامه وتطبيقه يعني الجهل والظلم والخراب والدمار..

وأي إنسان «غر» يسمع هذا هل يبقى في قلبه محبة لله ولرسوله ولدينه؟ وأي إنسان خال من الثقافة والعلم والمعرفة يسمع هذا هل يرضى بالله ورسوله ودينه؟

هذا بينما يقدِّم هؤلاء الشياطين باطلَهم وفكرهم وحياتهم ورجالهم في صورة جذابة مغرية: فكفرهم هو النور، وحياتهم هي السعادة، وفكرهم هو الحق، ومناهجهم هي العلم والمعرفة، وأنظمتهم هي العادلة، وإنسانهم هو الحر، وفلاسفتهم ومفكروهم هم العلماء والعباقرة، وعقولهم هي الذكاء والمواهب، وحضارتهم هي القدوة والنموذج، ومجتمعاتهم هي الجنة.. ويُخدع سذج أغرار من بين المسلمين فيصدقون هذا الهراء ويملأون قلوبهم محبة ورضى وقبولاً لهؤلاء وما هم فيه..

من أجل هذا نقول: نحن أحوج ما نكون إلى حديث رسول الله ﷺ، الذي يبصرنا بالأمور التي نذوق فيها طعم الإيمان، إنها الرضى، الرضى بالله وبرسوله وبدينه.. وهناك صلة وثيقة بين الإيمان والرضى. الإيمان هو الأمن والطمأنينة والتصديق والمعرفة، والخضوع والثقة.. وهذه كلها لا تتحقق إلَّا بالرضى والقبول فإذا رضيتَ بالشيء صدقتَ به ووثقت، وإذا رضيت بالشخص أحسنت له وخضعت واطمأننت.. ولهذا الإيمان لا يقوم إلَّا على الرضى، ولا يتحقق إلَّا بالرضى، ولا يُتذوَّق طعمُه إلَّا من خلال الرضى، ولا يملأ القلب وينير الحياة إلَّا عن طريق الرضى، ولا يدخل على صاحبه ويقود خطواته ويوجه له حياته إلَّا من باب الرضى الواسع الجميل..

ولهذا كم نحب رسول الله ﷺ عندما دلنا على طريق تحقيق الإيمان وتذوُّق طعمه، وكم كان صادقاً وفطناً وعالماً وموهوباً عليه الصلاة والسلام عندما قرر الرضى بالأمور الثلاثة طريقاً لذوق الإيمان..

إن من رضي بالله رباً أحبه وتوكل عليه واستعان به، واكتفى به سبحانه، ولم يطلب غيره لأن الكل غيره عاجزون ضعاف، ومن لم يكفه الله لم يكفه شيء، ومن رضي بالله حاز كل شيء، ومن استغنى بالله لم يكن فقيراً إلى أي شيء، ومن اعتز بالله لم يذل لأي شيء.. وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٧].

ومن رضي برسول الله ﷺ رسولاً، اكتفى به قدوة ونموذجاً، واكتفى به قائداً، وزعيماً وموجهاً، وأقبل على سيرته دارساً مستفيداً، وعلى سنته راضياً مطبقاً، وعلى شخصيته ﷺ محباً ومصلياً.

ومن رضي بالإسلام ديناً قنع به، وطبق ما فيه من واجبات، وترك ما نهى عنه من محظورات.. واعتقد أن كل ما فيه خير وحق وهدى وعدل.. وآمن بأن الحياة الراضية الكريمة لن تكون إلاَّ به ومن خلاله.

وأن الناس لن يسعدوا إلاَّ إذا طبقوه وعاشوا في ظلاله.. ولذلك يلتزمه عن رضى وقناعة، ويدعو إليه على هدى وبصيرة، ويواجه الجاهليين الشياطين به ويجاهدهم من خلاله.. ويعيش حياته به حراً أبياً، وعزيزاً كريماً، وغنياً مستعلياً..

إن الرضى بالإسلام ديناً هو سر الثبات على الحق، والجهر بالحق، والصدع بالأمر، والنهوض بالدعوة، مجاهدة الباطل واستعلاء الإيمان..

لماذا لا يرضى المؤمن بالله رباً وهو رب كل شيء؟ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] والله الغني ونحن إليه فقراء ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

ولماذا لا يرضى بمحمد ﷺ رسولاً وهو البار الرحيم بالمؤمنين؟ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولماذا لا يرضى بالإسلام ديناً وهو دين المخلوقات كلها؟ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

ولماذا لا يرضى بالإسلام ديناً وهو الطريق الوحيد الموصل إلى رضى الله وجنته؟ إن الدين عند الله الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: .٨٥].

ولماذا لا يرضى بالإسلام ديناً وهو الذي رضيه الله لنا ديناً؟ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]

ومن هو العاقل الذي لا يرضى ما رضيه الله له؟ ولا يختار ما اختاره الله له؟ وهل هو أعلم من الله؟ وأي عاقل من بني البشر يدعي هذا؟.

والمؤمن إذا عاش هذا الحديث، ورضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، سيذوق طعم الإيمان عملياً في حياته وهو طعم لذيذ، ويسعد بالإيمان عملياً سعادة غامرة، ويطمئن بالإيمان اطمئناناً راضياً.. ونتيجة لهذا سينشط لأداء الطاعات وتنفيذ الواجبات وترك المنهيات.. ستكون الطاعة والعبادة عليه يسيرة بفضل الرضى وطعم الإيمان، وسيبقى يطلبها ويستلذها ويشتاق إيها، لأن الرضى هو الذي يحدوه إليها، وطعم الإيمان هو الذي يرغبه فيها..

ولهذا كم كان رسول الله ﷺ مربياً حكيماً عندما وجه أحد أصحابه إلى ذكر الله بكيانه، بمعنى أن يرضى بالله رباً ويرضى به رسولاً، وبالإسلام ديناً.. جاءه رجل فقال: يا رسول الله: إن تكاليف الإسلام قد ثقلت علي. فقال: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله..

إننا لن نذوق طعماً للإيمان إلاَّ بما بينه رسول الله ﷺ، وإننا لن نكشف زيف الباطل إلاَّ بذلك، ولن نستعلي بالحق إلاَّ بذلك، ولن نثبت على طريق الله إلاَّ بذلك، ولن ننشط للعبادات ونترك المحرمات إلاَّ بذلك، ولن نسعد في حياتنا إلاَّ بذلك. فليكن هذا الحديث العجيب شعاراً لنا نردده صباح مساء ــ كما كان يفعل رسول الله ﷺ يومياً ــ ولْنقل باستمرار «رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً» ولنحوِّلْه من كلام ذهني نظري لساني إلى حقائق واقعية ووجود خارجي مُعاش، فنعيش في ظلاله حياة إيمانية سعيدة غامرة، نذوق فيها طعم الإيمان، ونجد فيها حلاوة الإيمان.

محبـة الإيمـان

الإيمان يُحَب محبة غامرة ظاهرة ويُرْغَب فيه رغبة ملحة، ويُطْلَب طلباً مستمراً، ومحبة الإيمان بدهية لا تحتاج إلى عناء أو إثبات، وحقيقة فطرية لا تحتاج إلى تعليل أو تبرير، ولها صورة عملية ووجود خارجي فلا يمكن أن تُكتم أو تبقى سرية..

المؤمن يحب إيمانه حباً خالصاً غامراً، لأن الله هو الذي منَّ وأنعم عليه به، فحبب هذا الإيمان إليه، ورغَّبه فيه وحثه عليه، فاستجباب المؤمن لتوجيهات ربه، وأقبل على إيمانه محباً راغباً طالباً.

إن الله يريد بنا الخير عندما يحبب إلينا الإيمان.. ويكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وفي ذلك يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧]، إن الله لم يحبب إلينا إلاَّ كل خير محببٍّ فلماذا لا نقبل عليه ونتخذه حبيباً، وإن الله لا يريد بنا إلاَّ اليسر والهداية والتوبة، فلماذا لا نحقق مراد الله فينا؟ وإن الله أعد لنا مقابل ذلك رحمة ومغفرة وجنة ونعيماً فلماذا لا نسعى نحو ما أعده لنا.. إن هذا كله لن يكون إلاَّ بمحبتنا للإيمان فلنتخذْه حبيباً أنيساً لطيفاً..

ومن الذي لا يحب الإيمان؟ ولماذا لا يحبه؟.

إن عـدم محبـة الإيمـان تعنـي محبـة نقيضـه وهـو الكفـر والفسـوق

والعصيان، لأنهما أمران متقابلان متعارضان، وإنهما حالتان متغايرتان إذا تلبستَ بإحداهما وحققتها، فإنك نافر من الثانية مستبعد لها وتارك لها بصورة تلقائية، فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال؟.

إن عدم محبة الإيمان دليل مرض في النفس والقلب، واعوجاج في التصور والفكر، وانحراف في الشعور والوجدان، وشيطنة في الرغبات والأهواء، وبهيمية وحيوانية في الجوارح والبدن والحياة.. ومن يكون هكذا فماذا تبقىٰ له من الإنسانية والاستقامة والخير والفضيلة والحياة؟ إنه ميت وبطن الأرض خير له من ظهرها.

والعجيب أن الذين يكرهون الإيمان لا يعترفون بأنهم مرضى، ولا يسلِّمون بأنهم شاذون مشوهون، بل يسحبون هذه الأمراض والقبائح على المؤمنين، ويزعمون أنهم هم البشر الأصحاء الأسوياء..

إن محبة الإيمان هي دليل الخير في الإنسان، والاستقامة في الفطرة، والصحة في القلب، والسعادة في الحياة.. ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك: ٢٢]. ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٦ ــ ٢٨] ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ [النور: ٢١].

المؤمن يحب الإيمان حباً عميقاً خالصاً لأن الإيمان هو نور مقابل الظلمات، وطهر مقابل الخبث، وفضيلة مقابل الرذيلة، وصلاح مقابل الفساد، وهدى مقابل الضلال، وحياة مقابل الموت، وبصيرة مقابل العمى، وحق مقابل الباطل..

أي إنسان له قلب وعنده حياة يترك الإيجابيات إلى السلبيات؟ ويختار الشر على الخير؟ ويفضل الظلام على النور؟ ويريد العمى بدل البصر؟ والضلالة بدل الهدى؟ والعذاب بدل المغفرة؟ والنار بدل الجنة؟ والموت بدل الحياة؟.. وأي عاقل يفعل هذا؟ إن من يفعل هذا يحكم عليه بعدم العقل والحياة والإدراك من قبل أي إنسان ناظر إليه.. وهل الكافرون إلاَّ هكذا؟ هل الذين يكرهون الإيمان ويحبون الكفر إلاَّ هكذا؟.. يا ويحهم أين عقولهم إن كانت لهم عقول؟ وأين قلوبهم إن كانت لهم قلوب؟ وأين حياتهم إن كانت لهم حياة؟.

وصدق الله في وصف هؤلاء بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧] وفي قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠] وفي قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥].

هذا وبينما يرفض هؤلاء الاعتراف بحقيقتهم في الدنيا وأنهم ليسوا على شيء، وأنهم بدون سمع أو عقل أو قلب أو حياة، يرفضون الاعتراف بهذا مغالطة وتعنتاً؛ فإنهم يوم القيامة يعترفون على أنفسهم ويقررون هذه الحقيقة ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

إن محبة الإيمان دليل الخير والحياة عند صاحبه وهذا لن يكون إلاَّ للمؤمن.

ومحبة الإيمان تكون في القلب فتعمه كله، وتتغلغل فيه، وتذهب إلى كل شغافه وجوانحه.. محبة الإيمان لا تترك في القلب مجالاً لمحبة

نقيضه وضده، ولا تستثني منه جانباً ولو يسيراً لنقيضه وضده، ولا تسمح للقلب أن يغفل لحظة عنه، وينشغل فيها بنقيضه وضده، ولا أن ينبض لحظة هاتفاً بنقيضه وضده.. إن القلب لا بد أن يصفو كله للإيمان، وأن يخلص كله للإيمان، وأن يتجمع كله على الإيمان، وأن يتجرد كله للإيمان.. وإلاَّ فلا إيمان، ولا محبة للإيمان، وصدق الله القائل: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

هذا ومحبة الإيمان لا تتحقق بالادعاء ولا تكون ولا تثبت لصاحبها بالادعاء، إن محبة الإيمان لها دليل يدل عليها، ولها ترجمة عملية تشير إليها، ولها واقع عملي خارجي حياتي يعتبر نتاجاً وثمرة لها.

إن من يحب الكفر أو الظلم أو المعصية أو الرذيلة لا يحب الإيمان، وإن من يوالي الظالمين والكافرين لا يحب الإيمان، وإن من يتلوث بالحرام والمنكرات لا يحب الإيمان.. إن مَنْ لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما لا يحب الإيمان، وإن من لم يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام في كل سنته وسيرته لا يحب الإيمان، وإن من لم يطع الله ورسوله لا يحب الإيمان، وإن من لم يحب المؤمنين الصالحين العابدين لا يحب الإيمان، وإن من لم يكن داعية للإيمان ومن أهله وجنوده لا يحب الإيمان، وإن من لم يستعل بالإيمان لا يحب الإيمان، ومن لم يجاهد الجاهلية به لا يحب الإيمان!! فلننظر أين نحن من هذه الأمور في حياتنا وواقعنا وسلوكنا واتجاهنا واختيارنا، ليثبت لنا ادعاء محبة الإيمان، ويكون واقعنا أكبر شاهد عليه ودليل إليه.. وصدق الله القائل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢].

• • •

نـداء الإيمـان

نداء الإيمان نداء محبب إلى قلوب المؤمنين، يسمعونه بكل كيانهم ويستجيبون له في حياتهم.. والمنادي للإيمان يحمل أعظم رسالة، ويؤدي أفضل وظيفة، ويرسل أطيب نداء..

ولهذا ورد في القرآن آية عجيبة تبين فضيلة نداء الإيمان، وفضل من ينادي به وله، وفضل من يستجيب له، وثمرة هذه الاستجابة ونتيجة هذه الطاعة. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

المؤمن كم يأنس بمن يناديه للإيمان، وكم يسر بمن يدعوه للإيمان، وكم يحب من يرغِّبه في الإيمان.. وتتمثل هذه الأمور عنده في الاستجابة الفورية لهذا المنادي، مع الدعاء له بخير الدعاء..

إن المنادي للإيمان حري بأن يُسمع لندائه، وأن يُستجاب له، وأن يُحَب ويُطاع، لا لذاته ولا لشخصه ولا لثقافته.. بل لما يدعو له ويؤمن به ويؤديه.. إنه داع يدعو إلى الله، ويدل الناس على طريق الله، ويقودهم إلى جنة الله، ومن الذي يرفض هذا العطاء الجزيل؟.

إن الجن المؤمنين توجهوا لقومهم ينادونهم بنداء الإيمان، ويدعونهم

إلى الله، وقد سجل القرآن الكريم دعوتهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٣١ ـ ٣٢].

ولأن الله سبحانه يعلم أثر نداء الإيمان في القلوب الصافية المؤمنة، والفطر السليمة المستقيمة، والنفوس المطمئنة البصيرة، كان ينادي المؤمنين بنداء الإيمان، ويصفهم بصفة الإيمان.. ولهذا كان غالب أسلوب القرآن في مخاطبة المؤمنين أن يخاطبهم من خلال الإيمان، بحيث يستجيش الإيمان في قلوبهم، ويطلق أشواقه من حولهم، ويلقي ظلاله عليهم.. وكان غالباً ما يمهد للأوامر والتكاليف والتشريعات بهذا التمهيد الإيماني، ويجعلهم يعيشون هذه المعاني والإيحاءات والظلال، ثم يُلقي إليهم بالتكاليف، فيكونون مهيئين تماماً لها، ومستعدين للالتزام بها..

وقد بلغت النداءات بيا أيها الذين آمنوا في القرآن الكريم ثمانية وثمانين نداء، وكلها أعقبها أوامر أو منهيات، أو إرشادات وتوجيهات..

والملفت للنظر أن هذا النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لم يرد في أية سورة مكية، بل اقتصر وروده على سور مدنية ـ هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والحج والنور والأحزاب ومحمد والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والتحريم.

وهذا الأمر له أبعاد تربوية وتوجيهية، ويشير إلى طريقة القرآن الفريدة في التربية والتشريع وإعطاء الأوامر والتكاليف.. إنه يبدأ بالإيمان حتى إذا نما في القلوب وأنار للكيان.. وعاش صاحبه في ظلاله، نادى هذا المؤمن

بنداء الإيمان الحبيب المجاب، ثم أصدر الأمر وأعطى التوجيه، وعندها يكون المؤمن مستجيباً ملبياً منفذاً مطيعاً..

إن نداء الإيمان في القرآن ـ بعد غرس شجرة الإيمان في قلوب المؤمنين وقطفهم من ثمارها وتذوقهم لحلاوتها ـ هو السر في نجاح القرآن في تشريعاته وتكاليفه، وفي إضفاء الصبغة الإيمانية عليها، وفي إكسابها تقديراً واحتراماً والتزاماً وطاعة في نفوس المؤمنين..

فما هي إلاَّ لحظة يصدر فيها الأمر الرباني للمؤمنين ـ بآية من القرآن، أو كلام لرسوله عليه الصلاة والسلام ـ حتى يكونوا منفذين ملتزمين..

ما إن سمع المؤمنون قوله الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١] ما إن سمع المؤمنون نداء الإيمان في هذا النص حتى التزموه وتركوا الخمر فوراً ونطقوا بألسنتهم وكل كيانهم: «انتهينا ربنا انتهينا».

يخاطب الله المؤمنين بأعذب خطاب، ويصفهم بأحب صفة، ويناديهم بأندى نداء، إنه خطاب الإيمان ووصف الإيمان ونداء الإيمان، لأن الله يعلم الارتباط الوثيق بين الفطرة المؤمنة السوية وبين الإيمان، يعلم أنها لا تسمع إلاَّ لندائه، ولا تستجيب إلاَّ لصوته، ولا تتأثر إلاَّ به! وسبحان الله العالم بالنفوس والقلوب الخبير بخفاياها.. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتفاعلون ويتجاوبون مع نداء الإيمان

ويلتزمون بما يعقبه من توجيهات وتشريعات، ويتلقونها للتنفيذ والتطبيق العملي الحي..

وهكذا كان الصالحون مع القرآن، ونداء الإيمان في القرآن، يقفون طويلاً أمام الآيات التي تتضمن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ يتلونها ليس بألسنتهم لكن بكل كيانهم، ويسمعونها ليس بآذانهم لكن بكل كيانهم، ويتلقونها بكل شعورهم وانفعالهم، ويلتزمون بما توحي به وتشير إليه.. كان شعارهم مع نداء الإيمان في القرآن ما بينه موجهوهم: «إذا سمعت: يا أيها الذين آمنوا فأرْعِها، سمعك وافتح لها قلبك، لأن ما بعدها إما أمر تلتزمه، وإما نهي تتركه، وإما توجيه تأخذ به..».

إن المنادي بنداء الإيمان هو الداعية إلى الخير والنور والحياة، هو الذي يبشر بالحياة الكريمة اللائقة المتمثلة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وإن المنادي بنداء الكفر هو الداعية إلى الشر والفساد والنار والعذاب، وهو الحري ألا تسمعه الآذان ولا تستجيب له القلوب ولا تتقرب منه النفوس، لو كان الناس يعون ويدركون هذه الحقيقة، ويا ويح الساذجين المغفلين الذين يصدون عن نداء الإيمان ويستجيبون لنداء الشيطان..

والقرآن الكريم يبين الفرق الواضح بين النداءين، والبوْن الشاسع بين الدعوتين، والمصير المختلف لكل من الرايتين.. يبين هذا من خلال قصة مؤمن آل فرعون رضي الله عنه..

دعا فرعونُ قومَه لاتباعه وقال لهم: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [غافر: ٢٩].

ودعا هذا الرجل المؤمن الناس لاتباعه هو: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [غافر: ٣٨].

ووقف هذا المؤمن الداعية المنادي بنداء الإيمان يبين للمخدوعين والسذج الفرق بين ندائه ونداء فرعون، ودعوته ودعوة فرعون، ومصير من استجاب له ومصير من استجاب لفرعون.. ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٣].

نداء الإيمان هو الأثير لدى القلوب والمتجاوب مع النفوس، المتفاعل مع الفطر.. إن الله يعلم أن المسلمين لن يسمعوا إلا لنداء الإيمان، ولن ينقادوا إلاَّ إليه، ولن يصلحوا إلاَّ به.. وهذا ما حدث في التاريخ الإسلامي عملياً، نودي المؤمنون بنداء الإيمان فآمنوا واستجابوا وصلحوا وأصلحوا، وغيروا التاريخ والعالم.. ثم استحوذت على المسلمين الشياطين واجتالتهم إلى الفساد والضلال والضياع.. فذلوا وهانوا وتقهقروا..

وإن المتحقق البصير في كثير من النداءات المتكررة الكثيرة المرتفعة في سماء الأمة في هذا العصر، يراها نداءات للضلال والضياع والنار، ويرى أصحابها «دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها» كما وصفهم رسول الله ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه، كما روى ذلك البخاري ومسلم ـ ويرى هؤلاء جنوداً للشياطين، تحولوا بتلك النداءات إلى أئمة يدعون إلى النار ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١ ـ ٤٢].

إننا على يقين جازم أن المسلمين في هذا الزمان لن يستجيبوا إلاَّ لنداء الإيمان، ولن يصلحوا إلاَّ به، ولن يتفاعلوا إلاَّ معه.. وعلى يقين أن كل النداءات والدعوات الجاهلية الشيطانية ستختفي وتتلاشى وتزول، وإن نداء الإيمان سيعلو ويرتفع ويقوى ويشتد..

ألا بارك الله في الحناجر المؤمنة التي تطلق نداء الإيمان، والأصوات المباركة التي ترتفع بنداء الإيمان، والآذان الواعية التي تسمع نداء الإيمان، والقلوب الحية التي تتفاعل بنداء الإيمان، والحياة الكريمة التي تزكو وتطهر بنداء الإيمان.. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

ربنا إننا سمعنا منادياً للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار..

● ● ●

مجـالس الإيمـان

مجالس الإيمان هي البيئة المناسبة التي ينمو فيها الإيمان ويزداد ويتجدد، والوسط الملائم الذي يحيا فيه ويعيش، والجو المهيأ الذي فيه يتحرك ويتنفس.. ولا بد للمؤمن أن يتعرف على هذه المجالس، وأن يكثر من ارتيادها والتردد عليها..

وفي المقابل هناك مجالس للشيطان، يتقلص فيها الإيمان ويذوي ويموت، والمؤمن يتجنب هذه المجالس ويحذرها، ويعلم ضررها وخطورتها عليه وعلى إخوانه المؤمنين الآخرين..

المؤمن يحارب مجالس الشيطان ويحاول جاهداً القضاء عليها.. كما أنه يحب مجالس الإيمان ويدعو إليها، ويعمل جاهداً على تكثيرها وزيادتها، وتعميمها على جميع الأماكن ولجميع المؤمنين..

المؤمن يبحث عن أمثاله من المؤمنين الصالحين ويدعوهم إلى مجالس الإيمان، إلى جلسات إيمانية مباركة، يلتقون فيها معاً، يتواصون فيها بالحق، ويتواصون فيها بالصبر، ويتدارسون الإيمان ويحيونه ويعيشونه.. وتكون مجالس الإيمان هذه محطات للتزود بالوقود الإيماني الذي يعينه على السير في الطريق إلى الجنة..

وقد كان الصحابة يعون هذا ويدركونه.. ولهذا كانوا يتداعون

ويتنادون إلى هذه المجالس الإيمانية، ويحرصون عليها وعلى تجديد إيمانهم فيها..

والصحابي الجليل الذي كان أكثر الصحابة حرصاً عليها ودعوة إليها هو «معاذ بن جبل» رضي الله عنه..

روى الإمام البخاري: «وقال معاذ: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

وقال ابن حجر: عن الأسود بن هلال قال: قال لي معاذ بن جبل: اجلس بنا نؤمن ساعة. وفي رواية: كان معاذ بن جبل يقول للرجل من إخوانه: اجلس بنا نؤمن ساعة، فيجلسان فيذكران الله عز وجل ويحمدانه.

وكلام معاذ لا يحمل على أصل الإيمان لكونه كان مؤمناً، وأيَّ مؤمن، وإنما يحمل على إرادة أنه يزداد إيماناً بذكر الله.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: إنما أراد تجديد الإيمان، وتجديد الإيمان إيمان» [فتح الباري لابن حجر: ١/ ٤٥].

وكلام معاذ بن جبل يمتلىء فطنة ووعياً، وفقهاً وحركة، وتربية وبعد نظر، فلا يُصلح الإنسان المؤمن ولا يزيد إيمانه، ولا يبصره بدعوته وحركته، ولا يعرفه على دينه وطريقه ورسالته مثل مجالس الإيمان، ولهذا حرص عليها الدعاة المربون كثيراً..

يقول الأستاذ الداعية عبد المنعم صالح العلي في كتابه «المنطلق» من سلسلة إحياء فقه الدعوة:

«لن ينفك الداعية المؤمن بين جذبين:

جذب إيمانه ونيته، وهمته، ووعيه، وشعوره بمسؤوليته، فهو من ذلك في عمل صالح، أو عزمة خير..

وجذب الشيطان من جهة أخرى وتزيينه الفتور، وحب الدنيا، فهو من ذلك في غفلة وكسل، وطول أمل، وتراخ عن تعلم ما يجهل. .

وهذا التردد بين الجذبين أزلي قديم لا ينقطع، وبسببه أوجب المؤمنون على أنفسهم جلسات تفكر، وتأمل، وتناصح، يتفقدون فيها النفسَ أن يطرأ عليها كبر أو بطر، والقلبَ أن يعتوره ميل، والعلم والإيمان أن يتلبسا بإفراط يزيد بدعة، أو تفريط يهمل أمراً أو إرشاداً.

وقد ترجم معاذ بن جبل رضي الله عنه هذا الإحساس بكلمة غدت مادة في دستور أجيال المؤمنين، فقال لصاحبه وهو يذكره: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

فأخذها ابن رواحة، فقال لأبي الدرداء رضي الله عنهما، وهو آخذ بيده: «تعال نؤمن ساعة، إن القلب أسرع تقلباً من القِدْرِ إذا استجمعت غلياناً». [المنطلق: ٥/٦].

في مجالس الإيمان يكون المؤمن مع الله، ذاكراً له هو وإخوانه المؤمنون، وهم بذكرهم الجماعي لربهم يحيون إيمانهم ويقوونه ويجددونه ويزيدونه. .

وقد حثنا رسول الله ﷺ على ذكر الله في مجالس الإيمان، وعلى تجديد الإيمان في مجالس الإيمان، وعلى التردد على مجالس الإيمان.

وأفضل ما يكون في مجالس الإيمان تلاوة القرآن وتدارسه وتدبره، فأعظم ألوان ذكر الله ذكره بتلاوة كلامه. . روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلاَّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده».

إن هذه الأمور الثلاثة العظيمة هي من مكاسب مجالس الإيمان وثمراتها، وإنها مكاسب لا تعادلها مكاسب في هذه الدنيا: نزول السكينة عليهم، أن يسكنوا ويطمئنوا، وأن تغشاهم رحمة الله فيعيشوا في ظلالها ويسعدوا فيها، وأن تحفهم الملائكة وتصحبهم ـ وأنعم بها من صحبة طاهرة ـ والأهم من هذا كله أن يذكرهم الله في الأعلى.

وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ في حديث عجيب لطيف ممتع ما أعده الله للمؤمنين المترددين على مجالس الإيمان الذاكرين الله فيها. .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول لله ﷺ: «إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر. . فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. . فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. . فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم ـ ما يقول عبادي: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا و الله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني! يقولون: لو رأوك لكانوا أشد لك عبادةً، وأشد لك تمجيداً، وأشد لك تسبيحاً. . فيقول: فماذا يسألون؟ يقولون: يسألونك الجنة. يقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا و الله يا رب ما رأوها. يقول: كيف لو رأوها؟ يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة. قال فمم يتعوذون؟ يقولون: يتعوذون من النار. فيقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا و الله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟ يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة. فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرت لهم. يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم. .».

يقوم المؤمنون من مجالس الإيمان وقد تجدد إيمانهم وعاشوا حياتهم بإيمان، ونالوا أعظم جائزة وهي أن يغفر الله لهم، وأخذوا أعظم وسام ـ وهو أن يذكرهم الله سبحانه ـ فإلى مجالس الإيمان حتى نجدد هذا الإيمان ونزيده وننميه ونحييه، وإلى مجالس الإيمان حتى نعيش حياتنا في هذه الدنيا بإيمان وسكينة وطمأنينة وعزة وجرأة واستعلاء وثبات ودعوة وجهاد وطاعة وتقوى. . وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

• • •

موكــب الإيمــان

موكب الإيمان كريم طيب طاهر، يمثل صفوة الناس وخير البشر، إن الإيمان هو أكرم وأثمن وأهم شيء في هذا الوجود، وإن الاستجابة له والعيش به دليل تأصل الخير في صاحبه، وعلامة صفاء معدنه وحسن توجهه وحياة قلبه، بل إن هذا علامة حياته واستقامته وفطنته.. إنه لا يُقبل على الحق إلاَّ الطيب صاحب الخير والفضيلة، وإنه لا يرفض الإيمان والحق إلاَّ الفاسد المريض الشرير..

إن من يُعرض عن الإيمان فإنه ظالم لنفسه ولغيره، معتدٍ على نفسه وعلى غيره، موقع للضر في نفسه وفي غيره، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة: ٢٢].

وهذا الذي يُعرض عن الإيمان يقع في الكفر والضلال والضياع، ويختار الظلمات والتيه والموت.. إن البشرية قد انقسمت منذ قديم الزمان إلى فريقين لا ثالث لهما:

فريق المؤمنين وفريق الكافرين، أهل الحق وأهل الباطل، وسار هؤلاء في أحد طريقين: طريق الإيمان وطريق الكفر.

موكب الإيمان سار فيه المؤمنون منذ آدم وحتى قيام الساعة، كل منهم يهتدي للإيمان، ويلتحق بركب أهل الإيمان، ويسعد بالسير في

موكب الإيمان، ويحدو فيه بحداء الإيمان، ويهتف بهتاف الإيمان، ويحيا في ظلال الإيمان..

موكب الإيمان موكب طاهر مبارك، موكب نظيف مهتد، طريقه سهلة ميسرة، انتشرت أنوار الإيمان فيها وانتشرت ظلالها عليها فسعد المؤمنون بسلوكها..

موكب الإيمان أصيل في هذا الوجود، وقديم وثابت وراسخ فيه، فهو ليس حادثاً عارضاً، ولا فلتة عابرة ولا حماسة فاترة.. لقد سار فيه أبو البشر آدم عليه السلام ــ في أول من سار ــ وسار فيه أبناؤه المؤمنون.. وسيبقى المؤمنون ينضمون إليه ويسيرون فيه حتى يأتي أمر الله..

موكب الإيمان يستعلي على التلاشي والانقراض. فرغم عنف المعركة بينه وبين ركب الباطل وجند الشيطان.. إلَّا أن موكب الإيمان يقابل هذا بالاستعلاء والثبات واليقين والثقة ويجاهد فيها جهاد المؤمنين، وعلى صخرة جهد وجهاد هذا الموكب تتحطم أسلحة الباطل ويرتد كيدهم إلى نحورهم..

موكب الإيمان يقدم للحياة طعمها اللذيذ، ويعطي للإنسانية قيمها الإيمانية، ويفسر للناس الوظيفة والرسالة والغاية والأمل، ويرسخ الفضيلة والخير والحق في الوجود، ويحارب الشيطان وجنوده وأسلحته ومكره.. ويهدي للبشرية نماذج إيمانية رفيعة لتكون قدوتها، وقمماً إيمانية رائدة لتحاول السير إليها.. وينشر نوره وظلاله وطيبه على الوجود فيحلو ويزكو..

موكب الإيمان حبيب، لما يقوم به ويحققه، يحبه أهل الحق ويرغبون فيه ويطلبونه..

موكب الإيمان يقود المؤمنين فيه الأنبياء.. يكونون في مقدمته، يَعبرونه طلائع لهم فيه، يحثون المؤمنين على السير، ويحدون لهم ليأنسوا.. ويَسَعونهم بصدورهم وقلوبهم ليتموا الطريق، كما يقود هذا الموكب طلائع الحق من العلماء والدعاة والمجاهدين والمصلحين الرواد.. ويبقى الموكب الطاهر المبارك يسير، وتبقى الطريق سالكة، ويبقى المؤمنون ينضمون له ويسعدون فيه..

وقد أشار القرآن إشارات إلى موكب الإيمان، وإلى طلائعه الرواد من الأنبياء.. ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦ ــ ١٣٨].

هذا الموكب رواده قليل عددهم ــ بالقياس إلى عدد البشرية ــ لأن أهل الحق دائماً قليلون.. كما قال الله: ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣] وكما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

السابقون الأولون في هذا الموكب هم ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٣٩ ــ ٤٠].

أما أصحاب اليمين في هذا الموكب فهم ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٣٩ ــ ٤٠].

وقد بيَّن رسول الله ﷺ مصير موكب الإيمان وركب الشيطان، وقلة عدد أهل الإيمان بالقياس إلى الكافرين في حديث له عجيب. روى مسلم

عـن أبـي سعيـد الخـدري ــ رضـي الله عنـه ــ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك! قال: يقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. قال: فذلك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد! قال: فاشتد ذلك عليهم. قالوا: يا رسول الله أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال: أبشروا. فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً، ومنكم رجل. قال: ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة، فحمدنا الله وكبرنا.

● ● ●

التسابق في الإيمان

الإيمان كنز ثمين ومكسب عظيم لا يقدره إلَّا من عرفه، ولقد عرف فضله وقيمته ومنزلته الصالحون المبصرون فتسابقوا في الوصول إليه، وتنافسوا في الحصول عليه، وكل منهم كان يحرص على أن يكون أول الواصلين، وطليعة المتسابقين..

وجهل منزلة الإيمان وفضله أناس مطموسون ساذجون، عمي لا يسمعون ولا يعقلون، فتركوه إلى الكفر والضلال، وهجروه إلى العذاب والنار، خسروا أنفسهم وحياتهم فاشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة.. تسابقوا في المنكرات، وتنافسوا في المعاصي والذنوب، وتسارعوا في السير إلى النار والوقوع فيها والسقوط في دركاتها..

زهد هؤلاء في الإيمان فرفضوه، وجهلوا طريق الإيمان فتركوه للمؤمنين المتسابقين.. وجاءهم الهدى والنور والإيمان فكانوا أول كافر به، بدل أن يكونوا أول المؤمنين..

ولقد ذم الله في القرآن هؤلاء في قوله تعالى: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ٤١ ـ ٤٢].

لا يوجد إنسان يتمتع بعقل وفطنة، ويملك قلباً وروحاً وشعوراً،

يرضى أن يكون أول كافر بالإيمان، وأن يشتري الكفر بالإيمان والنار بالجنة والعذاب بالمغفرة.. أي عاقل يختار هذا؟ لولا أن القرآن أخبرنا عن جاهلين سابقين ذلك لما صدقنا، ولولا أننا رأينا في واقعنا نماذج شائهة ممسوخة فعلت هذا لما صدقنا.. لكن كَثُرَ هؤلاء المطموسون في زماننا الذين انطبق عليهم قول الله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨﴾ [البقرة: ١٠٨].

المؤمنون عرفوا قيمة الإيمان فأسرعوا إليه متسابقين متنافسين، وكلهم يريد شرف الوصول، ووسام السبق، وجائزة الأولية، وثواب المجاهدة، ودرجات الجنة..

موسى عليه السلام ـ وهو النبي الكريم ـ أراد أن يكون له فضل ومنزلة الأولية في الإيمان، والمسابقة والمسارعة إليه.. ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٣ ـ ١٤٤].

لما أعلن موسى عليه السلام استسلامه لله وإيمانه به، وكان أول أهل زمانه في ذلك أكرمه الله بالاصطفاء بالرسالة والتكليم، وكانت له جائزة الأولية والسبق..

ورسولنا محمد ﷺ كان في طليعة المتسابقين إلى الإيمان، وكان أول المسلمين المؤمنين جاءه التكليف من الله بذلك فنفذ والتزم.. وأعلن هذا للمسلمين:

بلَّغهم قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤].

وبلَّغهم قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٢].

ولقد تفاعلت نفس رسول الله ﷺ مع هذه الأوامر والتكاليف الربانية، ووعى ما توحي به إليه، وهو التسابق في الإسلام والأولية في الإيمان.. فكان كذلك ونفذ أمر الله له في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

كان الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام متسابقين إلى الإيمان، يسابقون قومهم إليه، وكانوا أول الواصلين إليه الحاصلين عليه..

وقد وعى أتباع الأنبياء المؤمنون الصالحون هذه الحقيقة، وعرفوا فضل التسابق إلى الإيمان ومنزلة السابقين الأولين إليه، فبذلوا جهدهم في أن يكونوا من هؤلاء..

نستمع إلى قول السحرة الذين كانوا أول من آمنوا بموسى عليه السلام، بعد أن جيء بهم لتكذيبه وهزيمته، ولكن قلوبهم تشربت الإيمان وذاقت حلاوته، ولذلك أجابوا فرعون في سؤاله عن سر اتباعهم لموسى، واستعلوا على تهديده لهم بما ورد في القرآن الكريم:

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٦]. لقد كان إيمانهم فورياً، واستجابتهم سريعة، بدون تأخير أو تلكؤ.. وكلمة «لما» تفيد هذا المعنى وتلقي هذا الظل.. إنها توحي بالتسابق في الإيمان والاستجابة الفورية لمن ينادي بنداء الإيمان..

ولقد صرح هؤلاء المؤمنون الأبرار بحرصهم على التسابق في الإيمان، ورغبتهم في أن يكونوا أول المؤمنين. عرفوا فضل السابقين الأولين عند الله؛ ولذلك هانت عليهم الصعاب وسهلت الطريق: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٥١].

فرعون ـ والطغاة من أمثاله ـ لا يريد أن يرى مؤمناً بالله.. إن الطغاة يخشون أن يُفتح باب الإيمان، ويبدأ التسابق إلى الإيمان، وإذا ما بدأت طلائع الموكب الإيماني في السير فإن الآخرين سيلحقون بهم ويكونون مؤمنين.. إن الطغاة يدركون هذا، ولهذا يحذرونه، فيسلكون سبيلاً شيطانياً لإغلاق هذا الباب الخيِّر، وقطع هذا الطريق المنير، وأول ما يفعلونه هو أن يصبوا العذاب على السابقين الأولين طليعة السائرين حتى يُرهبوا بذلك الآخرين..

ولذلك هدد فرعون هؤلاء المؤمنين، وأعطى تهديده قالباً وطنياً إصلاحياً.. لقد اتهمهم في إخلاصهم وفي وطنيتهم وفي محبتهم لبني قومهم.. إنهم متآمرون مع موسى عليه السلام ـ ومع قوى أجنبية خارجية معادية ـ يريدون تخريب البلد وإخراج أهله منه ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى

﴿ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ . .﴾ والملفت للنظر أن الشبهة الشيطانية التي استخدمها فرعون في اضطهاد وتعذيب السابقين للإيمان ـ وهي اتهامهم في وطنيتهم، وإثبات العمالة لهم، وتآمرهم مع قوى خارجية معادية ـ هي نفس الشبهة التي استخدمها ـ ويستخدمها ـ الطغاة الظالمون في اضطهاد وتعذيب السابقين الأولين في الإيمان. والتاريخ ـ وبخاصة المعاصر ـ مليء بالنماذج على ذلك. . إن شيطانهم واحد، ومكرهم واحد. . وشبهاتهم في أصلها واحدة وطبيعة المعركة مع الإيمان واحدة. .

لكن السبق الإيماني عند المؤمنين الأبرار فجَّر في نفوسهم المواهب والطاقات والإبداع، فأنار لهم الإيمان أنوار الفطنة والذكاء. . لقد عرفوا مغالطات فرعون في اتهامهم، كما وقفوا على طبيعة معركته معهم، والسبب الأساسي من حربه واضطهاده لهم. . ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾. هذا هو السبب في حقيقته ووضوحه. . إنهم مؤمنون وهو كافر. . ذنبهم الوحيد هو إيمانهم بالله، وجريمتهم الكبرى أنهم كانوا السابقين للإيمان بعدما وضح لهم الطريق. . فلماذا يُخْفي فرعون ـ والفراعين من بعده ـ هذا السبب؟ ويموه على الجماهير بافتراض أسباب أخرى، واختلاق جرائم وهمية خيالية. .

ولقد كانوا فطنين أذكياء عندما عبروا ـ أو عبر القرآن عن كلامهم ـ بكلمة ﴿تنقم﴾ دون غيرها، إن هذا الفعل المضارع له إيحاءات عجيبة، من ظلاله التي يلقيها في خيال السامع: إن الكافرين يحاربون المؤمنين حرباً لا إنسانية. . يستخدمون فيها كل الأسلحة والأساليب، ولا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذمة، ولا عهداً ولا قرابة، ولا شفقة ولا رحمة، ولا عرفاً ولا قانوناً. . إنها حرب انتقامية، ﴿وتنقم﴾ معناه أنهم يريدون في هذه الحرب أن ينفِّسوا عن حقدهم الأسود في النفوس تجاه الإيمان، ونقمتهم العمياء ضد

السابقين للإيمان، واستخدامهم الوسائل المادية والعلمية والنفسية في إشباع رغبتهم الانتقامية ضد أهل الإيمان.

لكن هؤلاء المؤمنين أدركوا جزالة العطاء، وارتفاع الثمن، وحسن الجزاء، وعظم الثواب لمن كان سابقاً في الإيمان، ولهذا تحمَّلوا كل شيء في سبيل الحصول عليه وتحقيقه ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

عرف صحابة رسول الله ﷺ، فضل التسابق في الإيمان، ومنزلة الأولين فيه، فكانوا يتنافسون على المراتب الأولى ويتسابقون في الوصول إليها..

تعاملوا مع قول الله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦].

إن المجاهدين هم سابقون إلى الإيمان، متسابقون في الخيرات والأعمال التي ترضي رب العالمين.. فكيف يستوي هؤلاء مع القاعدين عن العمل والجهاد، مع الذين قعدت هممهم وعزائمهم، وماتت في نفوسهم الرغبة في السبق والأولية والفوز.. إن المجاهدين فضِّلوا على القاعدين درجة.. والدرجة درجات من الله.. والدرجات أجر عظيم عظيم، ومغفرة ورحمة، ورضوان من الله الكريم الرحيم..

ويقرب هذه الدرجة التي للمجاهدين على القاعدين ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

لم يكن كل صحابة رسول الله ﷺ عليه الصلاة والسلام على منزلة واحدة، فرغم أنهم كلهم صحابة، إلاَّ أن منازلهم عند رسول الله ﷺ كانت على حسب سبقهم في الإيمان. .

كان المجتمع الإسلامي في المدينة مصنفاً إلى فئات ـ أو قل مقسماً إلى طبقات إيمانية ـ فهناك فئة ـ أو طبقة ـ المهاجرين، وفئة الأنصار، وفئة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وفئة البدريين أهل بدر، وفئة أصحاب بيعة الرضوان ـ يوم الحديبية ـ وفئة مَن أسلم من قبل الفتح وقاتل، وفئة مُسلمة الفتح الطلقاء الذين أسلموا من بعد وقاتلوا. .

يقول الأستاذ الإمام سيد قطب في وقفة له لطفة ـ من ألطف وأجود وأهم وقفاته في الظلال ـ عن المجتمع الإسلامي في مكة والمدينة ومظاهر النقاء والخلخلة في هذا المجتمع، وعناصر القاعدة الصلبة فيه وأهمية ذلك لكل حركة إسلامية ودعوة جهادية. . يقول عن تميز الفئات والمجموعات المؤمنة في هذا المجتمع: «نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها. . فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها ـ على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها ـ. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وتميز أهل بدر، وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية، ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا. . وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم تؤكد هذه الأقدار، التي أنشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها. . » [الظلال: ٣/ ١٥٧٥].

ولقد وردت آيات كريمة تثبت للمتسابقين في الإيمان من الصحابة فضلهم ومنزلتهم، وتسجل لهم سبقهم وأوليتهم، وتقرر عدم مساواتهم بمن جاء بعدهم من المؤمنين. .

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة: ١٠٠].

تتحدث هذه الآية عن ثلاث فئات تكوِّن بمجموعها طبقة إيمانية هي طبقة «السابقون الأولون»: وهذه الفئات هي: المهاجرون، والأنصار، والذين اتبعوا هؤلاء بإحسان. .

وقد اختلف المفسرون واللغويون في بيان المقصود بهؤلاء السابقين الأولين، وذهبوا إلى أقوال عديدة متعارضة أو متقاربة [انظر الطبري: ١٤/ ٥٣٥ ــ ٤٤٠].

قال سيد قطب مرجحاً قولاً منها: «والسابقون من المهاجرين نميل نحن إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر، وكذلك السابقون من الأنصار، أما الذين اتبعوهم بإحسان ــ الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك ــ فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم، وأبلوا بلاءهم بعد ذلك، وارتفعوا إلى مستواهم الإيماني ــ وإن بقيت للسابقين سابقتهم في فترة الشدة قبل بدر، وهي أشد الفترات طبعاً. .

وقد وردت أقوال متعددة في اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار، فقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر، وقيل: هم الذين صلوا للقبلتين، وقيل: هم أهل بدر، وقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية، وقيل: هم أهل بيعة الرضوان. . ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكوُّن طبقاته الإيمانية، أن الاعتبار الذي اعتبرناه أرجح. . والله أعلم» [الظلال: ٣/ ١٧٠٢ ــ ١٧٠٣].

ونحن نرجح ما رجحه سيد قطب لوضوح أدلته، ولأنه هو الذي يتفق

مع واقع المجتمع الإسلامي في المدينة، وقد رجح هذا مجموعة من المفسرين في طليعتهم إمامهم ابن جرير الطبري [١٤/ ٤٣٤].

وقد أورد الإمام الطبري حادثة طريفة تدل على فهم الصحابة الكرام للتسابق في الإيمان، وحسن تدبرهم للقرآن الكريم وتذوقهم لآياته وحياتهم بها..

قال: «مر عمر بن الخطاب برجل وهو يقرأ هذه الآية: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ﴾ قال: من أقرأك هذه الآية؟ قال: أقرأنيها أُبـيّ بن كعب. قال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه! فأتاه فقال: أنت أقرأت هذا هذه الآية؟ قال: نعم، قال: وسمعتَها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرانا رفعنا رفعةً لا يبلغها أحد بعدنا! فقال أُبـيّ: تصديق ذلك في أول الآية التي في أول الجمعة، وأوسط الحشر، وآخر الأنفال: أما أول الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] وأوسط الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وأما آخر الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].. [انظر تفسير الطبري: ١٤/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨].

إن عمر رضي الله عنه ـ من خلال هذه الحادثة ـ يعرف قيمة السابقين في الإيمان ومنزلتهم، وأنه لا يقاربهم من جاء بعدهم، استمع إليه يقول: «لقد كنت أرانا رفعنا رفعةً لا يبلغها أحد بعدنا»، وهذا فقه عمري عجيب وفطنة عمرية حركية رائدة.. ولقد وافقه أبـي بن كعب على هذا الفهم، ودعمه واحتج له بثلاث آيات من القرآن.. وإيرادها في هذا المقام واستخراج هذه الدلالة منها مجتمعة يدل على فطنة وموهبة وعلم أُبـيّ رضي الله عنه، وتخصصه في فهم القرآن وتفسيره..

ونحن نعتمد هذه الآيات الثلاث في بيان منزلة المتسابقين للإيمان وفضل التسابق فيه، ونضيفها للآيتين اللتين أوردناهما ــ آية الجهاد في النساء وآية السبق في التوبة ــ ونختم هذه الآيات بآية أخرى ــ سادسة ــ تقرر هذا وتوضحه.. وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠].

إنهما طبقتان لا تستويان وتصنيفهما على أساس التسابق في الإيمان: المؤمنون المنفقون المجاهدون قبل فتح مكة.. والمؤمنون المنفقون المقاتلون بعد الفتح.. وبينهما من المنازل والدرجات ما الله به عليم..

يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: «إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء، غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرة والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال. ذلك متعلق مباشرة بالله، متجرد تجرداً كاملاً لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب، لا يجد على الخير عوناً إلاّ ما يستمده مباشرة من عقيدته.. وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين» [الظلال: ٦/ ٣٤٨٤].

ولقد كان رسول الله ﷺ ــ حريصاً على ترسيخ هذا المعنى في نفوس الصحابة ــ وبخاصة المسلمون الجدد منهم ــ حتى لا تُهمل أقدار السابقين الأولين إلى الإيمان.. وحتى لا يطمع اللاحقون في أن ينالوا منزلة السابقين أو أن يساووهم..

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً

من المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه ــ الذي أسلم بين صلح الحديبية وفتح مكة ــ إلى بني جذيمة فهزمهم فصار القوم يقولون: صبأنا، ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، وأمر خالد بقتلهم باجتهاد منه على اعتبار أنهم ليسوا مسلمين، وخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما.. ووقع كلام بين خالد وعبد الرحمن. فقال له خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ــ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم أحداً ذهباً ــ أو مثل الجبال ذهباً ــ ما بلغتم أعمالهم»..

وروى مسلم هذه الحادثة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه».

وقوله عليه السلام: «دعوا لي أصحابي» «ولا تسبوا أصحابي» يوجه فيه الخطاب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، وخالد أحد أصحابه بالإجماع؛ ولذلك نجزم بأنه يقصد مجموعة خاصة من الصحابة، مجموعة مميزة يمكن أن نسميها «خاصة الصحابة» وهم الذين سبقوا إلى الإيمان..

وفي ذلك يقول الشهيد الحي سيد قطب: «يتحدد من هذا الحديث معنى معين لأصحاب الرسول ﷺ، الذين تكرر تحذيره بشأنهم، فهم أولئك السابقون، وقد كان يقول للمسلمين حوله وممن صاحبوه: «دعوا لي أصحابي» فدل على أنه ﷺ يعني صحبة خاصة.. وكذلك قال مرة عن الصديق ــ رضي الله عنه دعوا لي صاحبي» [الظلال: ٦/ ٣٤٨٤ حاشية].

وقد وعى الصحابة الكرام هذا الدرس فكانوا يصنفون الصحابة على

أساس سبقهم في الإيمان.. وقف بباب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، وجماعة من كبار قريش الطلقاء فأذن قبلهم لبلال وصهيب لأنهما كانا من السابقين للإسلام، فتورم أنف أبي سفيان، وقال بانفعال جاهلي: «لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه، فيقول سهيل بن عمرو: أيها القوم، إني والله أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم إلى الإسلام ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُركتم؟».

وكان منهج عمر في العطاء «الرجل وسبقه في الإسلام، والرجل وبلاؤه في الإسلام».. ولما طلبوا منه أن يسوي بين المسلمين في العطاء رفض، واعتبر أن هذا يتناقض مع التسابق في الإيمان، وأعلنها صريحة «والله لا أساوي بين من حارب مع رسول الله ﷺ ومن وحارب ضد رسول الله ﷺ».

والمؤمنون الصالحون يعترفون لإخوانهم السابقين للإيمان بفضلهم ومنزلتهم، ويسجلون لهم سبقهم لهم وتقدمهم عليهم.. ولهذا يتوجهون إلى الله بالدعاء الخاشع لهم ولهؤلاء السابقين ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩].

إن التسابق في الإيمان يهذب أخلاق المتسابقين ويصلح نفوسهم، ويستل أمراض قلوبهم، ويجعلها صافية مشرقة، ممتلئة إيماناً ومحبة وأخوة.. وإن التسابق في الإيمان لهو أفضل وسيلة لتوثيق أوامر الأخوة بين المؤمنين المتسابقين، ونزع الغل والحقد من هذه القلوب.. وإن التسابق في الإيمان يصلح الحياة الدنيا ويعمرها، ويصلح المجتمع بأعرافه وتقاليده

ونظمه وصلاته وارتباطاته.. بينما التسابق في الدنيا ومتعها وشهواتها يفسد أخلاق المتسابقين، ويملأ قلوبهم حقداً وحسداً وبغضاً وغلاً، وتكون علاقتهم مبنية على «التلاوم» أولاً ثم «التلاعن» بعد ذلك.. كل جيل يلوم السابق ويتهمه، ثم يلعنه.. ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا.. ﴾ [الأعراف: ٣٨].

هذا وإن التسابق للإيمان له ثمن رفيع في الدنيا وهو الريادة والسبق، والسبق للإيمان له لذة لا يعرفها إلاَّ من ذاقها، وإن الفوز بالأولية يملأ النفس والقلب بلذته ونشوته وشكره لله سبحانه.. إن لذة الريادة والتفرد من أمتع اللذات للنفس المؤمنة:

عجباً بأنك سالم من وحشة — في غاية ما زلت فيها مُفْردا
وإذا كانت النفوس عظاماً — تعبت في مرادها الأجساد

هذا عن الثمن والجائزة في الدنيا، أما يوم القيامة فإن السابقين الأولين لهم درجات عالية رفيعة في الجنة، لا يبلغها المؤمنون الآخرون المسبوقون..

لكن السبق للإيمان له ضريبة لا بد أن يدفعها هذا السابق راضياً.. إنه سابق للانتماء والالتزام ولهذا ينقم منه الكفار، وإنه الرافع لراية الإيمان ولواء الإسلام ولهذا توجه السهام إليه لإسقاط الراية، وإنه الذي يفتح الباب في طريق الإيمان والجنة، ويعلن بدء السباق، ويريد الآخرون إغلاق الباب وسد الطريق ولهذا يهاجمونه ويكيدون له.. إنه سيواجَه بأشرس وأعتى معركة وقتال وإيذاء من أعداء الحق.. ولكن تمتعه بلذة السباق، وتذوقه لحلاوة الإيمان، وتوكله على الله، ونظره للدرجات الرفيعة في الجنة، واستعلاءه بالإيمان، واستهانته بالدنيا، كل هذا زاد له للمجاهدة والثبات والانتصار، واستمرار السير صعداً نحو الجنة..

هـذه طـريـق الإيمـان فـأيـن السـائـرون؟ وهـذا مـيـدان السبـاق فـأيـن المتسابقون؟ وها هم قد بدأوا السباق فأين المفردون؟؟

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق المفردون قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات..».

● ● ●

نـور الإيمـان

الإيمان نور مشرق مضيء، وللإيمان نور منير بديع، يشرق هذا النور في قلب المؤمن أولاً فيضيء جوانحه ويزينها، ثم يشرق هذا النور على حياة المؤمن فتكون هادية سعيدة هانئة ميسرة..

يشـرق هـذا النـور الإيمـانـي علـى الـدنيـا فيضيئهـا، وعلـى الحيـاة فيصلحها، وعلى الظلام فيبدده، وعلى الشياطين فيكشفهم، وعلى الأعداء فيفضحهم.. وهذا النور ينير للمؤمن حياته، ينير له قبره، وينير له طريقه إلى يوم القيـامـة، ويسعى بين يـديه عنـد مـروره على الصـراط، فيجتـازهـا بتوفيق من الله ورحمته..

وقـد تضـافـرت الآيـات علـى إقـرار هـذه الحقيقـة، وقـررتهـا بجـلاء وصفاء، ليدركها المؤمن ويتعامل معها ويعيها.. الإيمان نور، والإسلام نـور، والقـرآن نـور، والهـدى نـور، والعمـل الصـالـح نـور، والطـاعـة نـور، والطمأنينة نور.. وكل هذه الأمور المباركة نور على نور.. فالمؤمن يعيش في النور، ويتقلب في النور، ويسعى ويتحرك في النور، ويواجه ويجاهد في النور.. ويكون في قبره في النور، ويوم القيامة في النور..

وفي المقابل الكافر والمنافق والظالم والفاسق والعاصي يعيشون في الظلمات، ويتحركون من خلالها، وتحيط بهم من كل جانب، وتلفهم في كـل لحظـة مـن حيـاتهـم، قلـوبهـم ظـلام، وكيـانهـم ظـلام، وحيـاتهـم ظـلام،

ودنياهم ظلام، وموتهم ظلام، وقبرهم ظلام، وآخرتهم ظلام، ووجوهم هناك مسودة كأنها أغشيت قطعاً من الليل مظلماً..

قال تعالى في بيان الفريقين: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال الله عن هذا النور في سورة النور: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٥ ــ ٣٧].

فهذا هو مثل نور الله، وهذه هي القلوب التي استنارت بنور الله، وهذه هي البقاع التي أضاءت بنور الله، وهذه هي الآثار العملية السلوكية لمن عاش في نور الله..

أما ظلمات الكافر في حياته ونفسه وعمله فيقدمها القرآن في هذه الصورة العجيبة ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

إنها صورة تعرض حقيقة، لا تَخرج حياة الكافرين عنها، إنهم يعيشون في ظلمات بعضها فوق بعض، عمي لا يرون حياتهم ولا طريقهم ولا غايتهم.. شتان بين من يعيش في النور الإيماني ومن يضيع وسط

ظلمات الكفر والضلال.. وهذه الآية العجيبة أيضاً تعرض صورتين: صورة المؤمن أحياه الله بالإيمان، وأنار له حياته بنور الإيمان فعاش حياة إيمانية مباركة، تقابلها صورة الكافر الميت في قلبه وروحه ومشاعره.. الذي أظلم عليه الكفر حياته، فعاش في ظلمات ليس بخارج منها.. هل يستوي النموذجان وهل تتساوى الصورتان؟ شتان شتان.. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

الإيمان حياة ونور، والكفر ظلام وموت.. الإيمان اتصال واستمداد واستجابة، والكفر حجاب وختم وتيه وضلال.. الإيمان تفتح ورؤية وإدراك واستقامة، والكفر انكماش وتحجر وضيق، قلق وشرود..

نور الإيمان يضيء للمؤمن طريقه، فتتكشف له حقائق الدين ومنهجه في العمل والحركة تكشفاً عجيباً.. تتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة وحقائق الناس، وحقائق الأحداث الجارية في عالم الكون وعالم الإنسان تكشفاً عجيباً..

بنور الإيمان يجد المؤمن الوضوح واليسر في كل شأن وكل أمر وكل حدث، ويجد الوضاءة والراحة في نفسه وحياته، ويجد الطمأنينة والأمان والأمن في عمره وحركاته وصلاته، ويجد نوراً يمشي به في الناس..

نور الإيمان يضيء للمؤمن الوجود والحياة، فيكشف له الطريق ومطباته ومنحنياته وعوائقه، والماكرين الشياطين وأساليبهم ومكرهم وكيدهم وحربهم له.. بنور الإيمان يعيش المؤمن بين الناس، ويتعامل مع الناس، ويمشي في الناس.. ألا أنعم بهذا النور [انظر التفسير اللطيف لهذه الآية في الظلال: ٣/ ١٢٠٠ ـ ١٢٠١].

ويدعو القرآن الكريم المؤمنين إلى تذوق هذه الحقيقة والعيش بها، يدعوهم إلى أن يتعرضوا لنور الإيمان ليسعدوا به ويعيشوا في ضيائه.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: ٢٨].

إن هذه الآية نص في نور الإيمان، ودليل للحصول على نور الإيمان: الإيمان بالله ورسوله، وتقوى الله وطاعته وإخلاص العبودية له.. يتعاملون بذلك مع نور الإيمان، وينالون رضى ورحمة ومغفرة الرحمن..

الإيمان ينير للمؤمن طريقه إلى الجنة يوم القيامة، ولا يفارقه في موطنٍ من مواطن اليوم الآخر، ويكون معه في أشد هذه المواطن والمشاهد عنفاً ورهبة، ألا وهو المرور على الصراط.. وإنها لنعمة كبرى ومنحة عظمى أن يكون مع أصحابه في ذلك المشهد.. ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحديد: ١٢].. ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم: ٨]..

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يطلب من الله أن يهبه النور ويجعله في النور، وكان يدعو في صلاته وفي سجوده بهذا الدعاء ـ الذي رواه مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ ـ «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، وعظِّم لي نوراً..» فلنكثر من الدعاء بهذا الدعاء، ولنتعرض لنور الإيمان لينير لنا حياتنا ودنيانا وأخرانا..

نفـع الإيمـان

الإيمـان نـافـع نفعـاً عـامـاً مجـزيـاً، ويمنـح صـاحبـه مكـاسـب ضخمـة، وأرباحاً وفيرة، وهو نافع للأفراد وللجماعات، وللدول والمجتمعات، نافع للجميع في الحياة الدنيا ويوم القيامة.

ما من مؤمن ولا مؤمنة يُقبل على الإيمان إقبالاً صادقاً، ويتعامل معه تعاملاً حياً جاداً، إلاَّ ويجد لهذا الإيمان نفعاً ملحوظاً في حياته الدنيا من خلال حركته الحياتية وتعامله مع الناس وصِلاته بهم.

ولا أعني بالنفع هنا النفع المادي والكسب التجاري، فإن المؤمن لا يعرف هذا اللون من التجارة، بل إن الإيمان قد يفوِّت على صاحبه بعض الأموال والمكاسب المادية الظاهرة، وبخاصة إذا تعامل مع أناس يعادون الإيمـان ويحـاربـون الفضـائـل ويكـرهـون الاستقـامـة. . ولكنـه لا يـأبـه لهـذا ولا يهتم به ولا يسعى إليه. .

إن الإيمان ينفع صاحبه في حياته الدنيا، وهو نفع ملحوظ في عالم الفضائل والقيم والأخلاق، وفي عالم السعي والحركة والعمل والحياة. . إنـه نفـع فـي حيـاتـه الشخصيـة وحيـاتـه الاجتمـاعيـة، حيـاتـه الخـاصـة وحيـاتـه العامة. .

إن الإيمان نفع، ومكسب لروحه وقلبه، ولأخلاقه وسلوكه، ولصلاته

وتعامله.. إن الإيمان يمنحه الكثير في هذا، ويبدو نفع الإيمان استقامة وطهارة، وعزة وكرامة، ونوراً وبصيرة، وتوفيقاً وتسديداً، وثباتاً واستعلاء، وهدوءاً واستقراراً، وطمأنينة وسكينة.. وكل هذا خير جزيل جميل، وكسب عظيم وفير، ونفع جليل عميم..

والإيمان نفع وكسب لصاحبه يوم القيامة عندما يرى الكافرين خاسرين لأنفسهم وأهليهم.. أما هو فقد كسب نفسه وقلبه، وكسب حياته ووجوده، وكسب أهله وماله وكسب ربحه وتجارته، وتبوأ مكانة عظمى في جنة الله.

هناك أناس لا يريدون أن يستفيدوا من الإيمان وقت السعة، ولا أن ينتفعوا به ولا أن يكسبوه.. فإذا رأوا الموت أمام أعينهم، وفاتت الفرصة وضاق الوقت، وأُغلق باب الإيمان، ولم يقبل الله عملاً ولا إيماناً عند الموت أو الصعق، اتجه هؤلاء الكافرون الخاسرون نحو الإيمان فآمنوا.. وهنا لم ينفعهم إيمانهم، ولم يكسبوا منه شيئاً لأنه لم يأت في وقته.. يقول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

إن المؤمنين ينتفعون بإيمانهم في الدنيا وفي الآخرة وإنهم يكسبون في إيمانهم كسباً مباركاً، وفيراً ثميناً، وهو الخير الجزيل الجليل.. أما هؤلاء الذين استيقظوا متأخرين، وآمنوا عند نزول العذاب فلن يكسبوا من إيمانهم ولن ينتفعوا منه..

ويقول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [السجدة: ٢٨ ــ ٢٩].

وهؤلاء الخاسرون الذين لم ينفعهم إيمانهم مثل إخوانهم الخاسرين السابقين.. وهناك آية ثالثة تقرر عدم نفع إيمان هؤلاء لحصوله في غير وقته، في وقت الاضطرار والبأس والعذاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤ ــ ٨٥].

المؤمنون ينتفعون من إيمانهم ويكسبون منه خيراً لحصوله في وقته المناسب.. والكافرون لا ينفعهم إيمانهم عند البأس والعذاب لحصوله في غير وقته المناسب.. وهذه سنَّة الله سبحانه التي لا تتخلف قط ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

ونحن علينا أن نتعامل مع سنَّة الله هذه، وأن نحاول إدراكها وفهمها وتعليلها وبيان حكمتها..

لماذا قبل الله إيمان المؤمنين وقرر لهم نفعاً فيه؟ بينما لم يقبل إيمان الكافرين المتأخر، ولم يرتب عليه نفعاً ولا كسباً؟.

إن الإيمان النافع لا بد فيه من أمرين:

الأول: أن يُقبل عليه صاحبه راضياً مختاراً، وأن يتفاعل معه بكل كيانه، وأن يتذوقه بكل حواسه ومشاعره، وأن يلحظ آثاره على حياته وسلوكه وواقعه.. إن الإيمان نعمة كبرى وقيمة عظمى. ولذلك لا يمكن أن يكون بالجبر والقسر والإكراه، إنه أسمى وأعلى من أن يحصل عن هذا الطريق.. إن الذي يُجبَر على الإيمان ويُكرَه عليه لا يتفاعل معه ولا يتذوقه ولا يجد لذته، وفي هذا يفقد الإيمان أبرز وأوضح سماته..

ولذلك قرر الله سنَّة دائمة في موضوع الدين والإيمان والإسلام: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالمؤمن يؤمن راضياً مختاراً، بل توَجهه للإيمان أسمى مظاهر حريته وإرادته واختياره، ولهذا يتفاعل مع الإيمان ويعيش فيه إنسانيته، فينتفع به وينفعه.

أما الكافر الذي يؤمن عندما يرى الموت قادماً إليه، أو عذاب الله وبأسه قد حل به، أو أن الساعة قد قامت، فإن هذا إلغاء لجانب الحرية والإرادة في الاختيار عند الإنسان ــ وهو أصيل عزيز ثمين ــ وهذا تعطيل لفكره وإنسانيته وصفاته.. والله لا يريد هذا ولا يقبل من الإنسان أن يفعل هذا، ولا يتحقق الإيمان بهذا.. ولهذا لا يقبله الله من صاحبه وقت الاضطرار، ولا ينتفع به.. ويكون هذا مثل فرعون الذي لم يؤمن إلاَّ وسط الموج عندما أدركه الغرق ورأى الموت قادماً إليه: ﴿إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠ ــ ٩١].

والأمر الثاني: أن الإيمان بذرة مباركة، تنمو فتنبت منه شجرة باسقة، وتبقى تنمو وتحيا حتى تنتج ثماراً يانعة لها حلاوة لذيذة.. وهذا كله يحتاج إلى وقت وجهد وأناة وتربية ومجاهدة، فلن تنبت الشجرة وتمتد وتكبر وتثمر في لحظات.. وهكذا الإيمان في قلب ووجود وحياة صاحبه، لا بد له من وقت وجهد وعناية ورعاية حتى يزداد ويوجه ويقود وينتج الأعمال الصالحة.. وإيمان الكافر وقت العذاب والاضطرار لا يترك له وقتاً ولا مجالاً لينمو ويثمر ولذلك لا يقبل منه ولا ينتفع به..

والإيمان نافع للمجتمعات والشعوب والدول مثل نفعه للأفراد، فما من أمة تتعامل مع الإيمان بصدق وجدية إلاَّ وتجني ثماراً مباركة لذلك، وما من شعب أو جماعة أو دولة يؤمنون حق الإيمان ويعيشون حياتهم

بإيمان إلاَّ ويجدون مكاسب هذا الإيمان في حياتهم، ويتفيئون ظلاله في حياتهم. .

إن الإيمان خير عميم للناس، وإنه صمام الأمان لحياتهم ووجودهم. . بالإيمان يمنع الله عنهم العذاب والبلاء، وبالإيمان يفيض الله عليهم الرزق والعطاء، وبالإيمان يبارك الله لهم حياتهم، ويسخر لهم ما حولهم. .

وآيات القرآن صريحة في هذا. . إنها تقرر نفع الإيمان للأمم والجماعات، وتعرض عليهم سنة ربانية ثابتة لا تختلف.

أهل نينوى في العراق ــ وهم قوم يونس عليه السلام ــ اختاروا طريق الكفر فاستحقوا بذلك عذاب الله، وأنذرهم نبيهم يونس عليه السلام وقوع العذاب بعد أيام. . وغادرهم. . ولكن القوم تفكروا في أنفسهم، وتشاوروا في أمرهم: إن نبي الله صادق في إخبارنا. . وها هو قد غادرنا، وإن العذاب واقع بنا، فما رأيكم أن نوقف إيقاع العذاب؟ ما رأيكم أن نؤمن بالله ليرفع عنا عذابه؟ إنه لا نجاة لنا من العذاب إلاَّ بالإيمان، ولا يرفع الله عنا العذاب إلاَّ بالإيمان. .

واتفقوا على أن يؤمنوا جميعاً بالله. . وآمنوا، وقَبِل الله منهم إيمانهم ونفعهم بهذا الإيمان. . وطبق عليهم سنته التي لا تتخلف. . ورفع عنهم العذاب ومتعهم إلى حين. قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٩٨].

إن الله عز وجل يضرب للأمم المثل على نفع الإيمان بقوم يونس، عندما آمنوا نفعهم إيمانهم ورفع الله عنهم عذابه: هلا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها. . والمثال الواقعي على هذا قوم يونس لما آمنوا رفع الله عنهم العذاب ومتعهم إلى حين. .

إن الكفر والعصيان بريد الدمار وطريق الخراب، وإن الإيمان هو بريد الكسب وطريق الأمان، وهذه سنَّة الله. بالإيمان يفيض الله خيراته على الناس ويفتح عليهم بركات من السماء والأرض فيأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم..

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

يا ويح المسلمين في هذا الزمان عندما يغفلون ـ أفراداً ومجتمعات ـ عن هذه الحقيقة فيختارون المعاصي ويجنون بها الدمار والخراب.. ويا ويح المسؤولين من المسلمين الذين يشترون الضلالة بالهدى، والمعصية بالطاعة، ويجلبون على شعوبهم المآسي والنكبات، وكان بإمكانهم أن ينفعوهم بالإيمان، وأن يسعدوهم بالإيمان، وأن يعيشوا معهم بأمان في ظلال الإيمان..

• • •

استعـلاء الإيمـان

الإيمان حقيقة يقينية قاطعة، وقوة مؤثرة عجيبة، وهو أساس الخير، ومنبع العزة، ومصدر الكرامة، لا توجد العزة إلاَّ معه، ولا تتولد الكرامة إلاَّ منه، ولا تعيش الأنفة والجرأة والشجاعة إلاَّ في ظلاله..

الإيمان الرباني القرآني، الفاعل الحي المؤثر، يمنح صاحبه الكثير، ويقدم له الكثير، ويكسبه ويضفي عليه الكثير من الصفات الحية، والسمات الطيبة، والمعاني الإيجابية..

الإيمـان يمنـح صـاحبـه شعـوراً غـامـراً بـالعـزة والكـرامـة، والأنفـة والشجاعة، والجرأة والإقدام، والحرية والإباء والاستعلاء.

واستعـلاء الإيمـان عظيـم، يعيـش بـه صـاحبـه حيـاتـه علـى منهـج الله، وينطلق به في حياته، ويواجه به أعداءه، ويثبت به على طريق الله.. إنه باستعلاء الإيمان يعيش، وبه يتحرك، وبه يحيا، وبه يجاهد، وبه يفاصل، وبـه يثبـت، وبـه ينتصـر، وبـه يستشهـد، وبـه يغـادر هـذه الحيـاة، وبـه يلقـى الله.. إن استعـلاء الإيمـان هـو السر في حياة المؤمنيـن، وفـي جهـاد المجاهـدين، وفي ثبـات الثابتين، وفي حريـة الأحرار، وكـرامـة الكـرمـاء، وعزة الأعزاء.. وفي دعوة الدعاة، وفي مفاصلة الجاهليين، وفي السير مع المؤمنين، وفي انتصار المنتصرين..

وقد دعانا الله في كتابه الكريم إلى أن نعيش استعلاء الإيمان في كل لحظة من حياتنا حتى نحقق ما يريده بنا ومنا وفينا.. قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩ ــ ١٤١].

وقد نزلت هذه الآيات التي تشير إلى حقيقة استعلاء الإيمان في مناسبة الحرب والجهاد ومواجهة الكفار الجاهليين، نزلت في التعقيب على أحداث غزوة أحد.. ومعروف أن المسلمين قد أصابهم القرح في هذه الغزوة ودفعوا ثمناً غالياً شهداء وجرحى ودماء وآلاماً، وأوشك الوهن والحزن أن يدب إليهم، وإن يتدسس إلى قلوبهم، فجاء القرآن يقضي عليه ويغلق الطريق في وجهه، ويجعل القلوب في حصانة ومناعة وثبات، فأشار إلى حقيقة الإيمان في هذه القلوب المؤمنة، وأثر هذا في شعور صاحبه في الاستعلاء وحياته بهذا الاستعلاء..

إن استعلاء الإيمان هو زاد للسير في الطريق إلى الله، وهو عدة أساسية للجهاد في سبيل الله، وهو معلم بارز واضح من معالم الطريق.. ولهذا خصه الأستاذ الإمام سيد قطب بالذكر في كتابه «معالم في الطريق» ووجه أنظار الدعاة إليه ودعاهم إلى أن يعيشوا به ويتحركوا من خلاله، حتى يضمن لهم الثبات والمواجهة والانتصار..

يقول في فصل «استعلاء الإيمان» من «المعالم» إنه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن، وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء..

إنه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليه نفس المؤمن إزاء كل شيء، وكل وضع وكل قيمة، وكل أحد. الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان.

الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان، وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان، وعلى تقاليد الأرض التي لم يصغها الإيمان، وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان.. وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان..

الاستعلاء مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المال، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء.

الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية، ولا عرف اجتماعي، ولا تشريع باطل، ولا وضع مقبول عند الناس.. [المعالم: ٢١٩ ـ ٢٢٠ دار دمشق].

إن استعلاء الإيمان هو صمام الأمان لدى المؤمن، وهو أساس الثبات والانتصار، لأنه يواجه وضعاً جاهلياً ومجتمعاً جاهلياً وعرفاً جاهلياً، يضغط عليه بعنف ليتنازل أو يضعف، وقد يضعف ويشعر بالوهن والحزن إذا لم يعش حقيقة الإيمان، ولم يتذوق استعلاء الإيمان، ولم يواجه الجاهلية من حوله، وهو مستعل بالإيمان.

لماذا يعيش المؤمن استعلاء الإيمان؟ وما هي مظاهر استعلاء الإيمان؟

إن المؤمن هو الأعلى في كل شيء وإن الكافر هو دونه في كل شيء، فماذا يطلب الأعلى ممن هو دونه؟ ولماذا يضعف ويحزن ويتهاوى أمام من هو دونه؟..

إن المؤمن هو الأعلى سنداً ومصدراً. إنه يتلقى عن الله، ويستند إلى الله، ويتوكل على الله، والله يكفيه وينصره ويؤيده..

إنه الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود، وسر الحياة، ودوره فيها ووظيفته ورسالته من خلالها...

إنه الأعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص..

إنه الأعلى ضميراً وشعوراً وخلقاً وسلوكاً، وطهراً وعفافاً، وخيراً ونوراً، وإيماناً ويقيناً..

إنه الأعلى شريعة ونظاماً، وتشريعاً ومنهاجاً.. [انظر تفصيل هذه المظاهر في المعالم: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

ولا يعني استعلاء الإيمان أن يتيه المؤمن على من حوله، وأن يتجبَّر عليهم ويتكبر، وأن ينتفش أمامهم وينتفخ.. إن هذه أخلاق جاهلية وليست أخلاقاً إيمانية، ولا يمكن أن تصدر عن إنسان امتلأ إيماناً ويقيناً وطاعةً وتقوى..

إن المؤمن وهو يعيش استعلاء الإيمان يكون مع الناس، ويعيش معهم، يعاملهم ويجاملهم ويواسيهم ويساعدهم. إنه يسعهم بقلبه الكبير، ويرحمهم بنفسه الكبيرة، ويحتمل أخطاءهم بصدره الرحب، ويمنحهم ـ بصدق وإخاء وإخلاص وتواضع ـ حبه ورحمته وبره وعطفه..

ورحم الله الأستاذ سيد قطب الذي يقول حول هذا المعنى: «حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحاً، أو أطيبُ منهم قلباً، أو أرحب منهم نفساً، أو أذكى منهم عقلاً، لا نكون قد فعلنا شيئاً كبيراً.. لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة..

إن العظمة الحقيقية أن نخالط هؤلاء الناس، مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم، وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم. . » [أفراح الروح: ١٠].

المؤمن لا يترك لحظةً استعلاءَه بالإيمان واعتزازه به وحركته من خلاله، سواء كان غالباً أو مغلوباً، منتصراً أو مهزوماً، طليقاً أو سجيناً، مكرماً أو مضطهداً معذباً. الناس معه أو ضده، يحالفونه أو يحاربونه. . . لأنه يعيش باستعلاء الإيمان: «وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، وينظر إلى غالبه من علٍ ما دام مؤمناً، ويستقين أنها فترة وتمضي، وأن للإيمان كرة لا مفر منها. . وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأساً. إن الناس كلهم يموتون أما هو فيُسْتَشْهد، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة وغالبه يغادرها إلى النار، وشتان شتان. . » [المعالم: ٢٢٦].

لا يفارقه استعلاء الإيمان عندما يفسد المجتمع ويعيش حياة جاهلية، فيبقى المؤمن مصرّاً على دعوة هذا المجتمع إلى الله. .

ولا يفارقه استعلاء الإيمان عندما ينتفش الباطل، ويصول ويحكم، فيبقى مصراً على الحق واثقاً منه داعياً إليه. .

ولا يفارقه استعلاء الإيمان عندما يفسد الناس، ويتلوثون بالمعاصي ويغرقون في الوحل والطين، فيبقى مع الإيمان والفضيلة والطهارة والصفاء والنقاء.

ولا يفارقه استعلاء الإيمان والجاهلون يسخرون منه ويستهزئون به ويضحكون عليه، فيبقى قابضاً على دينه رافعاً رايته داعياً إليه. . [انظر تفصيل هذا في المعالم: ٢٢٦ ــ ٢٣٠].

باستعلاء الإيمان عاش رسول الله ﷺ وثبت ودعا إلى الله وواجه الكفار فانتصر.. وباستعلاء الإيمان تعامل الصحابة مع الأعداء فسعدوا وثبتوا وسادوا.. وباستعلاء الإيمان واجه الدعاة والصالحون والمربون الظالمين والفاسدين والطغاة والجبابرة فجاهدوا وأنكروا وأصلحوا وثبتوا..

كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعيش استعلاء الإيمان عندما قال لعمه أبي طالب: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، لن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وكان نوح عليه السلام يعيش استعلاء الإيمان عندما خاطب قومه الكفار قائلاً: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

وكان هود عليه السلام يعيش استعلاء الإيمان عندما خاطب قومه الكفار: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

وكان موسى عليه السلام يعيش استعلاء الإيمان عندما واجه فرعون الطاغية بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ولقد ضرب الصحابة نماذج رفيعة في استعلاء الإيمان، ولقد قدم الدعاة من بعدهم حتى ساعتنا هذه نماذج سامقة في استعلاء الإيمان؛ نحيل على بعض هذه النماذج في كتاب «الإسلام بين العلماء والحكام للشهيد عبد العزيز البدري».

رابطـة الإيمـان

تربط الناس في هذه الحياة روابط شتى، وتجمعهم أواصر عديدة، ويلتقون على وشائج مختلفة: «إن الجاهليات تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب، وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم والعشيرة، وآناً هي اللون واللغة، وآناً هي الجنس والعنصر، وآناً هي الحرفة والطبقة! تجعلها آناً هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك..» [الظلال: ٤/ ١٨٨٦].

ولكن الذي يربط بين الناس في الميزان الرباني الرباني والتقرير القرآني هو: الإيمان، والرابطة الوحيدة المعترف بها في هذا الدين هي رابطة الإيمـان، وآصرة الإيمـان، ووشيجة الإيمـان، وأخـوة الإيمـان، إذا وُجد الإيمان عند شخص والتزم بدين الله وأطاعه وأخلص له، فهو أخ للمؤمنين، له عليهم كل حقوق الإيمان والأخوة، وصارت تربط بهم أقوى الروابط، وتجمعه معهم أوثق الصلات.. ولو لم يملك من الروابط والأواصر الجاهلية شيئاً ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وإذا أعرض شخص عن الإيمان واختار طريق الكفر والضلال فقد قطعت كل روابطه وصلاته مع المؤمنين، ولا تنفعه كل الوشائج والأواصر التي يلتقي عليها الجاهليون. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

القرآن الكريم يؤكد على أخوة الإيمان باعتبارها أقوى الروابط والوشائج، بل يلغي كل الروابط الأخرى، ويحصر الأخوة والرابطة والالتقاء والوشيجة بالإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد أكد رسول الله ﷺ على هذه الرابطة وأشار إلى حقوق الأخوة الإيمانية وفضائلها ومزاياها في أحاديث كثيرة. وقد وعاها المسلمون السابقون وعاشوا بها وتفيَّؤوا ظلال الإيمان، وسعدوا بالأخوة فيه، فسعدوا وسادوا.

روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

وروى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا ــ عباد الله ــ إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث».

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا ــ عباد الله ــ إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا ــ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ــ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

ونظراً لقوة رابطة الإيمان التي تربط بين المؤمنين، ونتيجة لأخوة الإيمان التي تجمع بين قلوب المؤمنين، أصبحوا بها كالبنيان القوي

المتين. روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

وهذه الرابطة تزيل الفوارق والحواجز بين المؤمنين، فيكونون أشبه بالجسد الواحد المتناسق المتماسك الذي تلتقي كافة أعضائه على أمر واحد وغاية واحدة، بلا شذوذ ولا فرقة.

روى مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وفي رواية أخرى عند مسلم: «المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». وفي رواية ثالثة عند مسلم: «المسلمون كرجل واحد؛ إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله».

إن رابطة الإيمان عندما تكون كما يريد الله أن تكون قوة ومكانة وصلة وتماسكاً تجمع بين قلوب المؤمنين، وتقضي على الأمراض والنقائص والأنانيات من بينهم، وتحل محلها الأخوة والمحبة والإيثار والتعاون والتواصي. . ويكون المجتمع الإسلامي برابطة الإيمان وأخوته مجتمعاً ربانياً إيمانياً فريداً.

وتوجيهات القرآن وتقريراته وتأكيداته على رابطة الإيمان كثيرة، يستخدم مختلف الشواهد والأمثلة والنماذج لهذه الغاية. وينتزع من القصص القرآني عدة حوادث تبرز فيها هذه الحقيقة.

إن كل الصلات تتقطع عندما لا يوجد الإيمان، وإن كل الروابط تزول بزواله.

الولد المؤمن يتخلى عن أبيه الكافر، ولا يربط به رابط، ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]. ولذلك تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه آزر ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

والأب لم تعد تربطه صلة ولا رابطة بابنه الكافر. وها هو القرآن يخاطب نوحاً عليه السلام في شأن ابنه الكافر الذي كان من المغرقين في الطوفان: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٦].

والصلات الزوجية تتلاشى عند فقد الإيمان وتزول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

الزوج المؤمن لن ينفع زوجته الكافرة ولو كان نبياً، والزوجة المؤمنة لن يضرها زوجها الكافر وإن كان فرعوناً. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١٠ ـ ١١].

القرابة والعشيرة والأهل والقوم والوطن والأرض والمصالح والأموال وغيرها.. كلها روابط تتلاشى وحبال تتقطع عند فقدان الإيمان.. وتتقوى وتتمتن عند وجوده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ

إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣ ـ ٢٤].

لا رابطة تربط الخلف بالسلف عند عدم الإيمان، إن الإيمان هو الصلة التي تصل بين الجميع، وتخترق حدود الزمان والمكان، وتتجاوز كل الصلات والروابط، إن الخلف يرثون السلف إذا كانوا مؤمنين، ولا ينتمون إليهم إذا لم يكونوا كذلك.

قررها القرآن في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

أما المؤمنون فإنهم ينتفعون بالإيمان ويرتبط السلف والخلف برباط الإيمان، ويتبع الخلف السلف بالإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

التقاء الناس فيما بينهم على أساس الإيمان، به يفاصل المؤمنون الآخرين، ويجعلونه أساس العداوة وسببها، ويعادونهم لعدم إيمانهم وتبقى العداوة متأصلة شديدة حتى يؤمنوا بالله وحده.

أعطانا إبراهيم عليه السلام وقومه المؤمنون هذا المثل، وضربوا لنا من حياتهم هذا النموذج، ودعونا إلى الاقتداء بهم في عملهم ومفاصلتهم. وقد حذرنا الله عز وجل من موالاة الظالمين والكافرين، والارتباط بهم

والالتقاء معهم، وأمرنا بالاقتداء بإبراهيم وقومه المؤمنين فيما فعلوه:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ۙ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ١ ــ ٦].

وقرر القرآن أنه لا يمكن أن يوجد مؤمنون يرتبطون مع الآخرين بغير رابطة الإيمان، إن الإيمان والكفر نقيضان لا يجتمعان، وإن أصحابهما لا يرتبطون أو يلتقون: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ . .﴾ [المجادلة: ٢٢]

وتتوارد النصوص القرآنية على تقرير هذه الحقيقة وتكثر، لتؤكدها وتزيدها تقريراً ووضوحاً. ولا نريد أن نوردها كلها لأننا نخشى أن نخرج من موضوع رابطة الإيمان إلى موضوع الولاء؛ لأن الولاء يحتاج إلى بحث خاص، وله مجال غير هذا المجال.. مع أن الولاء والإيمان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً؛ بل إن الولاء هو ثمرة من ثمرات الإيمان، ونتيجة من نتائج رابطة الإيمان. المؤمن يحدد صلاته بالناس على أساس الإيمان، ولذلك

يوالي من كان من أهل الإيمان ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥٥ ــ ٥٦].

وهو يرفض موالاة الكافرين، بل يعاديهم ويحاربهم، ويستجيب لنداء الله في هذا: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

بقي أن نحاول استشفاف حكمة قصر الروابط على الإيمان، والإشارة إلى أهم هذه الحِكَم. لقد وقف الأستاذ الإمام سيد قطب أمام هذا، وسجل في ظلاله أهم الحِكَم، نشير إليها إشارة موجزة.

١ ــ إن الإيمان يمثل أعلى خصائص الإنسان الذي يفرقه عن عالم البهيمة، لأنه يتصل بالجانب الروحي فيه الذي يميزه عن عالم البهائم. وعندما يرتبط المجتمع برباط الإيمان فإنه يرتبط بأخص خصائصه الإنسانية، وبه يستعلي على الروابط الاضطرارية التي تلتقي عليها البهائم مثل: الأرض والمرعى والمصالح والحدود، التي تمثل خواص الحظيرة وسياج الحظيرة.

٢ ــ رابطة الإيمان تميز الإنسان عن الحيوان بمزية أخرى، إنها الإرادة والاختيار. أما باقي الروابط الأخرى التي يلتقي عليها الجاهليون فإنها لا تمثل هذه الخاصية الفريدة، مثل اللون والجنس والأرض والعشيرة لأن الإنسان لا اختيار له في كل ذلك. فالتقاء الناس على رابطة الإيمان يعني المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية وكرامته الإنسانية.

٣ ــ التقاء الناس على رابطة الإيمان، وإقَامة المجتمع الإسلامي على أساس الإيمان، يعني إنشاء المجتمع الإنساني العالمي المفتوح، الذي

تُلغى فيه جمع الفوارق، وتختفي فيه جميع القيود والحدود الاضطرارية التي لا يد للإنسان فيها، ولا يكون هناك إلاَّ شرط واحد للانضمام لهذا المجتمع العالمي المفتوح. إنه شرط الإيمان الذي يمثل خصائص الإنسان وإرادته واختياره.. وفي هذا المجتمع الإيماني تصب كل الطاقات والخواص والمواهب البشرية، وتجتمع في صعيد واحد لتنشىء الحضارة الإنسانية الإسلامية العالمية.

٤ ــ إن اعتماد رابطة الإيمان، التي تمثل ما قلناه في النقاط السابقة، وإبطال ما عداها من الروابط، هو من باب توافر الجهود في طريق واحد، وهو توحيد المقدسات والقِبْلات والتوجيهات كلها في شيء واحد: إنه الإيمان. يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد، وألا تتعدد المقدسات، وأن يكون هناك شعار واحد، وألا تتعدد الشعارات، وأن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات..

رابطة الإيمان تربط المؤمنين جميعاً على اختلاف الزمان والمكان. وأمة المؤمنين أمة واحدة تلتقي على هذه الآصرة، وترتبط بهذا الرباط.. وصدق الله العظيم القائل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] [انظر الظلال: ٤/ ١٨٨٥ ــ ١٨٩٢].

• • •

المـراجـع

١ ــ أسباب النزول، للواحدي النيسابوري
دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م.

٢ ــ أفراح الروح، لسيد قطب
الدار العلمية، بيروت ١٩٧١م.

٣ ــ الإيمان، لابن تيمية
المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٤ ــ الإيمان: حقيقته؛ أركانه؛ نواقضه، للدكتور محمد نعيم ياسين
عمان، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ــ ١٩٧٩م.

٥ ــ الإيمان والحياة، للدكتور يوسف القرضاوي
مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٩٧٥م.

٦ ــ تحصيل نظائر القرآن، للحكيم الترمذي
تحقيق: حسني نصر زيدان، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ ــ ١٩٦٩م.

٧ ــ التصوير الفني في الحديث النبوي، للدكتور محمد الصباغ
المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

٨ ــ التعريفات، للشريف علي بن محمد الجرجاني
دار الكتب العلمية ــ طهران، مصورة عن طبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦هـ.

٩ ــ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير
المكتبة التجارية بمصر، بدون تاريخ.

١٠ ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري
تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف بمصر.

١١ ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن وبهامشه تفسير النيسابوري
دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م.

١٢ ــ جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي
طبعة مصطفى الحلبي بمصر، الطبعة الثالثة ١٣٨٢هـ ــ ١٩٦٢م.

١٣ ــ الجداول، لإيليا أبو ماضي
مطبعة الراعي، النجف الأشرف، العراق.

١٤ ــ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني
دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥ ــ الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام لعبد الرحمن السهيلي
تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة بمصر، بدون تاريخ.

١٦ ــ السيرة النبوية، لابن هشام
تحقيق وضبط: إبراهيم الأبياري وآخرين.
طبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٥٥هـ ــ ١٩٣٦م.

١٧ ــ شرح العقيدة الطحاوية، للحنفي أو الملطي
بعناية الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.

١٨ ــ صحيح البخاري، للإمام البخاري
طبعة محمد علي صبيح.

١٩ ــ صحيح مسلم، للإمام مسلم
بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م.

٢٠ ــ صحيح مسلم بشرح الإمام النووي
المطبعة المصرية ومكتبتها، بدون تاريخ.
٢١ ــ العقيدة في الله، للدكتور عمر سليمان الأشقر
مكتبة الفلاح بالكويت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م.
٢٢ ــ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للقمي النيسابوري
على هامش تفسير الطبري، دار الفكر ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م.
٢٣ ــ فتح الباري بشرح البخاري، لابن حجر العسقلاني
دار المعرفة، بيروت، مصورة عن طبعة بولاق بمصر ١٣٠٠هـ.
٢٤ ــ الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري
دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
٢٥ ــ في ظلال القرآن، لسيد قطب
دار الشروق، الطبعة الخامسة ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.
٢٦ ــ الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي
إعداد: عدنان درويش ومحمد المصري.
منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي في سوريا ١٩٨١م.
٢٧ ــ لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور الإفريقي
دار صادر ودار بيروت، بدون تاريخ.
٢٨ ــ مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا
المؤسسة الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.
٢٩ ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل
المكتب الإسلامي ودار صادر، بيروت ١٣٨٩هـ ــ ١٩٦٩م.
٣٠ ــ معالم في الطريق، لسيد قطب
دار دمشق للطباعة والنشر، مصورة عن طبعة مكتبة وهبة بمصر.

٣١ ـ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني
تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.
٣٢ ـ المنطلق، لمحمد أحمد الراشد.
مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

● ● ●

المحتـوى

● ● ●

كتب للمؤلف

١ ــ سيد قطب الشهيد الحي.
٢ ــ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.
٣ ــ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب.
٤ ــ مدخل إلى ظلال القرآن.
٥ ــ المنهج الحركي في ظلال القرآن.
٦ ــ في ظلال القرآن: في الميزان.
٧ ــ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٨ ــ في ظلال الإيمان.
٩ ــ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
١٠ ــ تصويبات في فهم بعض الآيات.
١١ ــ مع قصص السابقين في القرآن (١ ــ ٣).
١٢ ــ البيان في إعجاز القرآن.
١٣ ــ ثوابت للمسلم المعاصر.
١٤ ــ إسرائيليات معاصرة.
١٥ ــ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.
١٦ ــ لطائف قرآنية.
١٧ ــ هذا القرآن.
١٨ ــ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.
١٩ ــ تفسير الطبري: تقريب وتهذيب.

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

ISBN 978-9933-486-13-6
9 789933 486136